نفحات إيمانية

دلائل عظمة الخالق سبحانه

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/١٢/٤٣٣٠)

٢١١
كردي، راجح عبد الحميد
نفحات إيمانية / دلائل عظمة الخالق سبحانه/._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
(١٢٨) ص
ر.أ.: (٢٠١١/١٢/٤٣٣٠).
الواصفات: / الثقافة الإسلامية /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-77-098-3 (ردمك)



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

نفحات إيمانية

دلائل عظمة الخالق سبحانه

تأليف

أ.د. راجح عبد الحميد الكردي

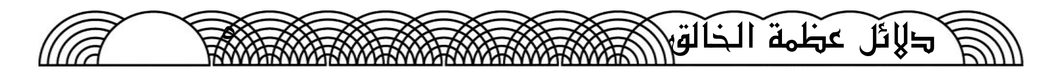
أستاذ مشارك/العقيدة والفلسفة والدعوة والسيرة

كلية الشريعة -الجامعة الأردنية



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله، وصفيه من خلقه حبيبنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واستن بسنته وثبت على هديه وجاهد جهاده إلى يوم الدين، وبعد؛

فقد بعث الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم ليدلوا الناس على الله ليوحدوه ويعبدوه، توحيد ربوبية باستشعار عظمته وإسناد كل شيء إليه خلقاً وتصرفاً، إرادة وتوجيهاً، بدءاً وقعاداً. وتوحيد ألوهية بردّ كل أمر إليه هدياً وتعبُّداً، وتقرباً وتنسكاً، فيعبدونه وحده لا شريك، بتوحيد عبادته والإخلاص له وبما شرع في مشاعرهم، خوفاً ورجاء، حُباً وبغضاً، استعانة وتوكلاً، وفي شعائرهم ونسكهم، صلاة وصوماً وحجاً وبراً، وزكاة وذبحاً وتقرباً، وعادةً وإلفاً، ومحبة وإخوة. وفي شرائعهم وقوانينهم؛ سياسة واقتصاداً، مالاً وعلاقات، وجهاداً وحرباً وسلماً.... وكل هذا قائم على حُسن المعرفة لله، وحسن التوجه له كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم آية: ٣٠].

ولذلك جعل الله اللازمة المتكررة على ألسنة أنبيائه ورسله قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وأنار للبشرية طريق معرفته والإيمان به بما أقام لهم من الآيات المنظورة في الأنفس والآفاق ما يدلهم على عظمة وجوده لاستشعار عظمة توحيده. ودعاهم بآيات الكتاب الكريم ليفتح عقولهم وأنظارهم وبصائرهم بلطائف بيناته، وإعجاز آياته ما يجعلهم يستشعرون عظمته بإعجاز سوره وآياته ونَظْمه وبيانه، وعلومه وشرائعه.

ودعاهم إلى توحيده وقد نفحهم بنفحات هَدْيه. فله سبحانه الحمد والمنة على ما أنعم وتفضل، وخلق وهدى.

وأردت أن أبث شيئاً من نفحات دلائل عظمته بعيداً عن طريق علماء الكلام، وكتب العقائد، في حلقات إذاعية أولاً، ثم مطبوعة ثانياً ليست على طريقة التأليف للكتب المعهودة الخاضعة للمألوف، بل على هيئة نفحات إيمانية في أصول الإيمان وأركانه، عبر الأثير كحلقات، نصحني بعض الأخوة الأعزاء أن لا تبقى نفثات أثير فتتطاير في الهواء سمعها من سمعها، وفاته سماعها من لم يسمعها، فإن العلم صَيْدٌ والكتابة قيده – كما يقولون – نصحوني

أن أسطرها وأنشرها تباعاً. وهي نفثات بعضها من وحي من لتح الله على العبد وأخرى مقروءة ومجموعة من كتب العقائد وكلام الصالحين.

لعل الله تعالى ينفع بها فتُقرب بعيداً إلى الله، وتردّ عاصياً إلى طاعة ربه، وتعمق إيماناً لمسلم، وتذكر غافلاً فينتبه. ولذلك فإني أنشرها، بل على هيئة نفثات سميتها نفحات إيمانية، يصدر في هذا العدد الأول منها **نفحات تتعلق باستشعار عظمة الله وأدلة وجوده وعظمته في النفس والآفاق، في الفطرة والوعي.**

تحت عناوين صغيرة، كل عنوان نفثة أو نفحة من هذه النفحات، سائلاً المولى عز وجل أن لا يحرمنا أجرها، وأن ينفع قارئها، وأن لا يبخل قارئها علينا بالدعاء إن أعجبته، ومن الاستغفار إن أزعجته.

والله من وراء القصد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د. راجح عبد الحميد الكردي

أستاذ مشارك/العقيدة والفلسفة والدعوة

كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

صويلح/ عمان – الأردن

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

الإيمان بالله والدعوة لتوحيده

اعتاد المتحدثون عن الإيمان أن يتناولوا أركانه الستة: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه، والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله عز وجل. وإذا ما تأملّنا في هذه الأركان نجدها متوقفة على الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى، فإن من لا تؤمن بالله تعالى لا يؤمن بسائر الأركان الخمسة الأخرى.

إذ أن أياً من الإيمان بتلك الأركان نابع من الإيمان بالله. ومن هنا كان الحديث عن الإيمان بالله، والدعوة إليه، واليقين به أمراً أساسياً وضرورياً في قضية الإيمان، وهو الفارق بين المسلمين والجاهليين، وبين المؤمنين والكافرين. ولكن الإيمان بالله تعالى ليس مجرد المعرفة النظرية بأن ثمة رباً وراء هذا الكون فحسب، أو قوة وراء هذا الوجود فحسب، فإن هذه المعرفة النظرية قد لا ينكرها أحد، ولربما يعتقد كثير من البشر بوجود رب خالق لهذا الكون وما فيه، ومع ذلك فهم كفار، حتى قال الله تعالى في هذا الصنف منهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥] [الزمر: ٣٨]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

إذن أين تكمن المشكلة؟ وما الذي يفرق المؤمنين عن الكافرين؟

إنه الإيمان **بوحدانية الله**، وهي أعظم معرفة لله، وأعظم تميّز للإيمان بوجود الله؛ لما يترتب على الإيمان بوجود الله الواحد لا شريك له من معرفة صحيحة لله، ومن آثار نفسية ووجدانية، وعمليّة وسلوكية، وتصوّرية وقيميّة، وعبادية شعورية، وشعائرية وشرائعية، ودنيوية وأخروية، تُميّز المؤمنين الموحدين. عن الكفار المشركين والملحدين. وهذا الإيمان بالتالي. وهو الإيمان بالتوحيد أو بوحدانية الله هو السمة البارزة المميّزة للإسلام عن غيره من الأديان والفلسفات.

وهو العقيدة التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل منذ آدم عليه الصلاة والسلام، وختمت بدعوة الإسلام ليكون الدين الخاتم والرسالة العالمية الخالدة التي تقوم على هذا التوحيد. وتعال معي إلى دعوات هؤلاء الأنبياء والرسل إلى

هذه العقيدة؛ عقيدة التوحيد الداعية الداعية إلى إفراد الله تعالى بالإيمان به وحده وإلى إفراده بالعبادة وحده في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [لأعراف: ٥٩].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

الإيمان بوجود الله

نحن نتحدث عن أهم وجود وعن أول وجود وموجود لم يسبقه وجود، ووجوده لا يشابهه وجود، وهو وجود الله سبحانه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. فهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، والظاهر الذي لا شيء فوقه، والباطن الذي لا شيء دونه.

كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره وخلق كل شيء. وسبق أن قلنا: إن وجود الله تعالى لا ينكره عاقل، ولم تكن مشكلة البشرية يوماً في إنكارها وجود رب، ولكن مشكلتها في أنها لا تعرف الرب. ومن ثم فسوء معرفتها للرب ينشأ منها سوء تصورها لربوبيته وألوهيته، ويفقدها الطريق السوي لمعرفته وعبادته؛ فإن من ساءت معرفته لربه ساءت عبادته له، ولهذا فسّر عبد الله سهل التستري حيث قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذرايات: ٥٦] فقال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون؛ لأن المعرفة الصحيحة تتبعها عبادة حقة صحيحة.

ومع يقيننا بوجود الله وعظمته فلا بأس من أن يتسلح المسلم بالأدلة على وجوده ومظاهر عظمته، فإن كل ما سواه دالٌ على وجوده، وإن وكل ما في سواه من مظاهر دال على صفاته، فالنظر في أدلة وجوده منعش لاستشعار عظمته، ودال على ضرورة حُبّة وخشيته وحسن مُراقبته، وحارسٌ للعقيدة والإيمان، ومبدّدٌ لشبهات أهل البدع والمترددين والمشككين وأصحاب الأهواء الملحدين.

ونحن لا نبتدع شيئاً في الدلالة عليه سبحانه؛ إذ كل شيء خَلَقهُ وهداه دالٌ على عظيم صنعهِ، ودقة علمه، وعلى وجوده رباً واحداً جل شأنه، وتقدست أسماؤه.

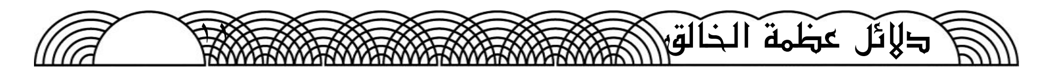
لكن هناك من تحجبهم عن الإيمان به حُجُب الغفلة، ورَيْن المعاصي والشهوات وشكوك الشياطين ووساوسهم، ونيران الهوى وعناد الاستكبار والظلم.

ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى وجهنا في كتابه العزيز إلى قراءة آياته

المتلوة للتفكير فيها دالةً على وجوده.

كما وجهنا إلى النظر في النفس والآفاق إلى آيات المجلوّة، للنظر فيها، ولنعمق اليقين بوجوده ووحدانيته وعظمته.

كما وجهنا مع حمل الآيات القرآنية، والآيات النفسية والكونية إلى الإحسان في أسلوب عرضها، بالدعوة إلى الإيمان به باتجاه إثارة الفطرة السليمة وحسن التخاطب معها؛ حكمة وعظمة، وحواراً وحسن مجادلة، ليجلو تلك الفطرة مما ران عليها من رواسب، ولعيديها إلى صوابها؛ فإنها خلقت سليمة مؤمنة بفطرتها، واجتاحتها الشياطين والأهواء من كل صوب، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي يقول الله تعالى: «خلقت صفاء فاحتالتهم الشياطين» فالأدلة القرآنية تعيدها إلى صوابها وحيويتها. ولنقرأ قول الله تعالى في هذه الفطرة المؤمنة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] لتسهل علينا الدعوة إلى الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾
[النحل: ١٢٥].



أدلة على وجوده سبحانه

الأدلة على وجود الله كثيرة جداً، لا نستطيع عدّها كماً ولا نوعاً ولا كيفاً. فتخيل أن كل ما سوى الله أثر لوجود الله، وهل نستطيع أن نحصي مخلوقات الله في الكون، في سمائه وفي أرضه، في عالم الغيب وفي عالم الشهادة، بأعدادها وأصنافها، وأشكالها وألوانها وأنواعها، وتفاصيلها ودقائقها، وعلاقاتها وارتباطها في إيجادها وفي إعدامها، في أوقاتها وفي أعمارها، في غيبها، في شهودها، فيما نعرفها فيها وفيما نجهله فيها؛ من أين نبدأ؟ وإلى أين ننتهي؟ وهل لنا أن ننتهي؟.

والقرآن الكريم يدفعنا لنحرك عقولنا ونزيد تأملنا إلى تعميق استشعارنا بوجود الله وعظمته، وإلى النظر في السماء والأرض وإلى ما فيهن ومن فيهن، وإلى ما هو ظاهر منهن، وإلى ما يمكن البحث عن الأسرار فيهن، وإلى نظام العلاقات بين الأشياء والظواهر في الأشياء بما لا يحصيه عدد في التأمل والنظر.

كل ذلك لا أقول ليوجد فينا علماً بوجوده بل ليُعمق فينا استشعاراً بعظمة وجوده وعظيم كرمه وجوده.

ويمكن لنا على سبيل المثال وتنظيم الفكر بالمثال: أن نجد هذه الأدلة في القرآن مجموعة من نموذجين:

نموذج الدليل النفسي أو الفطري أو الوجداني أو التأملي أو سمِّه ما شئت.

ونموذج الدليل الكوني أو الخلقي أو الإبداعي والاختراعي أو سمه ما شئت، يمثل ذلك ويدل عليه قول ربنا تبارك وتعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فهذان نموذجان يجمعان الأدلة العقلية والشرعية للنظر في وجود الله تعالى، وهما نموذجان في مجال الاستدلال قابلان للنظر العقلي والتأمل الفكري، والاستبصار القلبي وكل أدوات البحث.

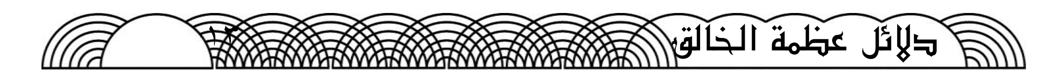
هذان المجالان هما:

أولاً: المجال (النفسي أو الفطرة)

وثانياً: مجال الكون والآفاق: أي كل ما صدر عليه أمر الخالق بقوله كن فكان. وأدعو نفسي وإياك إلى استشعار نعمة أن الله يدلنا في قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ هذه الإراءة وهي القدرة على استعمال أدوات الرؤية بصراً وبصيرة، عيناً فيها فاعلية النظر، ومرئياً فيه قابلية النظر، وعلاقة بين الرائي والمرئي، والناظر والمنظور، وعقلاً يصنع علاقة معرفية بين النظر والمنظور، بين الأداة والمجال لتنتج ثمرة عقلية تُعلن الإيمان العميق بالخالق سبحانه، أليست هذه النعمة في حد ذاتها دليلاً على وجود الله وعظمته؟ وأليس فقدها للغافل مصيبة؟ يحمد العبد ربه على نعمة منة الرب عليه بإعمالها وعدم تعطيلها؟ فلك الحمد ربنا على ما أنعمت.

ثم ألست تقف على قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ بنون الجمع، وهو سبحانه واحد وهي حتى في لغتها التعبيرية دالة عظمة الذي منَّ بنعمة الإراءة فيما خلق بعظمته وعظمة وجوده وعظمة خلقه؟.

ثم ألست تتذوق قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ في الاستدلال لا من أجل إيجاد وجود للشعور بوجود الله، فوجوده قبل الدليل على وجوده، وقبل المستدل على وجوده، وقبل وجود النتيجة العقلية بالنظر في وجوده، ولكن الخفاء لا في وجوده وإنما الخفاء الذي يظهر ويتبين هو لهم أي للناظرين لأن عقولهم تلبَّدَت بالحجب عن استشعار عظمته فتبلّدت، فالدليل والإراءة لإزالة الحجب وليتبين لهم هم أنه الحق وليس ليظهر الحق فالحق ظاهر قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].



من الله إلى الكون

ومرة أخرى مع قوله تبارك وتعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].

هناك طريقان دالان على عظمة وجود الله: **طريق ما سواه أي مخلوقاته** أي من آثاره الدالة عليه، وهي الأدلة الكونية والنفسية في الإنسان، بمختلف الظواهر من قدرة وإرادة، وحياة وهداية وإبداع وعناية، وتنظيم، ورعاية، وحكمة ووحدةٍ ومعجزاتٍ وكرامات، ومنتظمات عاديات وخوارق، وأفكار وعقائد، وأنظمة وشرائع، وعلم غيب وعلم شهادة، ومفردات من المخلوقات والدقائق؛ لها خلقة وفيها هداية. وكل هذه يمكن أن نُطلق **عليها الطريق الصاعد من الكون إلى الله،** من المخلوق إلى الخالق، من النظر في المخلوق للوصول بالعقل والتفكير والنظر والاستدلال إلى وجود الخالق سبحانه.

وهناك طريق آخر مقابل لهذا الطريق سالكوه أقل، والمنتبهون له أكثر ندرة، مع انه طريق رائع، باطنٌ في النفس ساكن فيها، هو السر الأعظم في النظر، والطريق الأرقى في الاستدلال وهو طريق **الاستدلال على المخلوق بوجود الخالق مما أسميه طريق الجدل النازل** من الله إلى ما سواه وهو المعبر عنه في قوله تعالى في الآية التي بدأنا بها قبل قليل﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾
.

وأحب أن أبدأ بهذا الطريق وأوجل الطريق الآخر الصاعد، إذ كل الناس مشتغل به. يقول رسولنا ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره ثم خلق الخلق». إذاً قبل أن يكون ثمة موجود كان الله تعالى موجوداً فهو الذي لا شيء قبله. وهو الله تعالى بوجود الأعظم، وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، قبل أن يستمد كل مخلوق وجوده منه، وقبل أن يتصف كل مخلوق بصفة منه، فهو الله سبحانه قبل المخلوق ذاتاً وصفات.

فهو الخالق الذي أعطى من عظمة وجوده كلَّ متصف بالوجود وجودَه بعد عدم، وهو العليم الذي أعطى كلَّ متصفٍ بالعلم علمَه بعد جهل، وهو

القادر الذي أعطى كل شيء قادر قدرته بعد عجْز، وهو السميع الذي أعطى كل سامع سمَعه بعد صمم، وهو البصير الذي أعطى كل مُبصِر بَصَره بعد عمى، وهو الهادي الذي أعطى كل مُهْتدٍ هدايته بعد ضلال، وهو الحي الذي أعطى كل حيّ حياتَه بعد أن لم يكن، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ - ٣] وهو المتكلم الذي أعطى كل متكلم كلامه بعد بُكمْ، وهو المريد الذي أعطى كل مريد إرادته وخياره بعد حيرة وهكذا.... يجمع ذلك كله قوله تعالى ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] .

وبهذا فإننا نستدل على ما فينا وبنا وفي الكون كله، من مظاهر وهدايات، ومن دقة صنع وخلقة، ودقة تنظيم وروعة، وضبط وفعالية، نستدل على ذلك كله بالله، فلأنه الله الخالق، نحن مخلوقون، ولأنه الرب فنحن مُنعّمون، ولأنه الله الهادي فنحن مهديون ومهتدون، ولأنه الله المتصف بالحياة وبالعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام فنحن أحياء ونعلم ونسمع ونبصر ونقدر ونريد ونتكلم ونفكر، ولأنه الله الرب الخالق الأول الآخر الظاهر الباطن، فكل ما سواه على هذه الأحوال والوجودات، والدقة والهداية، والتنظيم إذ لولا الله لما وُجدنا، ولولا الله لم يكن شيء سوى الله. فهو الشاهد والشهيد على كل ما سواه خلقاً وهداية.

وكل ما في الكون فهو من آثار عظمة الشهيد فلأنه عظيم نشهد عظمة ما في الوجود المخلوق له، ولأنه الرب الخالق نشهد آثاره في عالم الشهادة.

ولهذا فإننا في أعماقنا نستشعر هذا الدليل لأن السر في أعماقنا فنحن كنا بالله، والله كان ولم يكن كوْن، فكنا بعد أن كان وخُلقنا بعد أن كان ربنا الخالق ولا شيء معه ولا شيء غيره ولم يكن شي سواه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

الوعي الفطري دليل على وجود الله

جعل الله الإنسان مخلوقاً متميزاً عن سائر مخلوقاته فميّزه بالعقل وكلّفه بالإرادة المختارة، وعلّمه ما لم يكن يعلم. ولذلك كانت المنة على هذا الإنسان. **بنعمتين مقترنتين:** نعمة الخلق، ونعمة العلم. وجعله قادراً على قراءة هاتين النعمتين بعقل يتأمل في ذاته، ويتفكر في مخلوقات الله ويفكر في نفسه، ويقرأ في كتابين مفتوحين، كتاب الآفاق والنفس، وكتاب الوحي والهدى وهو القرآن. في كلا الكتابين آيات وآيات، كلها دالة على الله ولزوم عبادته، ومع ذلك كانت فطرة هذا الإنسان مميزة عن سائر المخلوقات. إذ جعل في سائر المخلوقات غير المكلفة هداية قائمة في خلقتها فخُلقت تسبح بحمد الله فيما غرس الله فيها من غريزة كما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، بينما جعل للإنسان فطرة تسبح بحمد الله بإرادة واختيار.

وهذه الفطرة أودع الله فيها - بما هي فطرة إنسانية- المادة والروح، والمادة من خلق الله والروح نفحة من الله، أودع فيها إحساساً أو شعوراً فطرياً بوجود الله وبوحدانيته وعظمته، لو تركت هذه الفطرة من غير ترسيب بيئي وخارجي عليها، من الريْن والشهوات والإفساد والتشويش، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي الله تعالى خلقت خلقي حنفاء فاجتاحتهم الشياطين وقال عليه الصلاة والسلام «إنما يولد المولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصرانه».

هذا الذي أودعه الله فيه يمكن أن نسميه الدليل الفطري على وجود الله، فإذا ما تعرضت للتشويش والتشويه، احتاجت للتذكير والعظة ولخطاب الحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلى الحوار مع آدابه، واحتاجت إلى الاستنهاض لإزاحة ما تراكم عليها حتى يستخرج الدليل الخارجي الكوني والنفسي ما فيها من الدليل الفطري؛ ليعمق لديها الإيمان؛ وكلاهما من الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ

ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾.

ومن هنا أسألك أخي المستمع: هل تشك لحظة واحدة بوجودك؟ وهل تحتاج إلى من يرشدك أو يقنعك بأنك موجود؟ ما الذي يدلك على اليقين بوجودك؟

الجواب: ليس إلا شعورك الفطري بأنك موجود. إنه وجدانك الذي لا تستطيع مقاومته، إنه إحساس عميق لديك لا يمكنك رَدَّه، ولا ينفصل وعيُك عن الإحساس بأنك موجود، فكذلك لا ينفصل وعيك عن الإحساس بالحاجة إلى ربك سبحانه، لتشعر بوجوده، ولتنعم بالإحساس بهذا الوعي بالوجود. فالشعور بالحاجة إلى الرب هو أعلى أنواع الأدلة على وجود الله؛ لأنه وعي فطري ليس مفارقاً للوعي بوجود الإنسان.

ومن ثم كانت الحاجة إلى الله في أعماق النفس إحساساً فطرياً لا ينفصل عنها؛ إذ أن في أعماقها حاجة ملحة إلى الإحساس بوجودها فالله سبحانه هو الذي أعطاك الوجود والإحساس بأنك موجود، والشعور العميق بأنك موجود بالله وأن وجودك وإحساسك بالوجود ليس ناشئاً نشأة ذاتية فيك، فإنك لم تكن موجوداً ولم تكن واعياً على وجودك، فمن الذي منّ عليك بالاستشعار بنعمة الوجود، والحاجة إلى الوعي بالوجود، والحرص على هذا الوجود؟ إنه ليس أنت وإنما هو الله سبحانه الذي يستقر الإيمان الفطري به في أعمق أعماق هذه الفطرة.

وبالتالي فإن لوثة الإلحاد أو لوثة إنكار وجود الله لا سند لها من الفطرة، ولا مكان لها من الفطرة الإنسانية، وإنما هي لوثة غريبة على فطرة الإنسان، وشاذة ليس لها في أعماق الفطرة رصيد ولا وجود، ولا بقاء ولا امتداد بل إن الفطرة لتقاوم هذه اللوثة بقدر استشعارها بوجودها ووعيها بأهميتها، واعتزازها بالإيمان بربها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨].



الحاجة إلى الله دالة
على وجود الله

أتريد من يدلك على الله؟ ومن يقنعك بوجوده وعظمته، وأنه رب مسئول عن كل ما تحتاجه، وتريده، وأنك تبحث عن هذا الدليل؟

فالدليل ليس بعيداً عنك، فإن الإيمان به كما قلنا في أعماق فطرتك وأنت لو استعملت وعيك لم تجده بعيداً عنك، وقيمة وجودك نابعة من قيمة وجوده، وقيمة عبوديتك نابعة من قيمة ألوهيته.

وإذا أردت مزيداً من التوضيح، فإذا غفلت عن وعيك واستبدت بك شهواتُك، وجمح بك هواك، وترسب على فطرتك غُبار الدنيا وثقْلة اللحم، وضعف الإرادة، فإنك ستجد نفسك أحياناً، وما أكثر هذه الأحايين لو راقبتها ! فأنت تنعم بصحة وعافية، وقوة وشدة، فإذا ما اعترى صحتك مرض، وهدّ من عزيمتك بلاء، فتجد نفسك من أعماقك بحاجة ماسة لتناجي رباً يرفع عنك الشدة، ويعيد لك الصحة، ويقوي لك العزيمة، فشئت أو أبيت، استسلمت أو كابرت، فإن لسانك لا يملك لنفسه إلا أن يكون مدفوعاً من أعماق ما وراءه من مستكِن الضمير، وعمق الإحساس الداخلي الفطري، يلهج بالقول: يا رب، إنه يدعو إنه يأمل، إنه يناجي، قد تبحث عن الطب فيعجز، وما الطب والدواء إلا مواد لا تملك لنفسها في ذاتها فاعلية المعالجة إلا إذا أعمل الله فيها الفاعلية، وإلا إذا اقترن معها بما خلق في جسمك من القابلية، وهو الخالق لك وللفاعلية والقابلية وللمرض وللمريض وللعلاج.

وكل ذلك لا يكون إلا بالله ومن الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠] وهو سبحانه الذي يصور هذا الإحساس الفطري بالحاجة إلى الله دالاً على وجود الله.

وأسمع قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وهو القائل سبحانه في تصوير الحاجة لهذه الفطرة إلى الله إيماناً فطرياً بوجوده ودليلاً فطرياً على عظمته:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وهو القائل سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

وهو القائل سبحانه:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

جواب الفطرة /الله الخالق

سجل القرآن الكريم جواب الفطرة الإنسانية لكثير من الناس، حتى من المشركين الذي يلحدون مع الله غيره أو يعبدون معه غيره أو من دونه أو اتخذوا أصناماً يرمون بها إليه، أو عبدوا ملائكة وزعموا أنها بنات الله وزعموا أنهم لم يعبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى. ولما عبدوا الأوثان وصمموها على هيئات مختلفة، إما صنم كبير ضخم، أو صنم لذكَر إله – بعل- ولأنثى زوجته- عشتروت- مثلاً، أو عبدوا مظاهر من الطبيعة والكون، فما فعلوا ذلك إلا وهم لا ينكرون وجود رب، ولكنهم لا يعرفون الرب فيرمزون إليه ليقربوا صورته منهم، وليتذكروه إما من زاوية أنه خالق للإنسان من ذكر وأنثى، وإما لأنه كبير، فيرمزون إليه بشيء عظيم، وإما لأنه مخيف فيرمزون إليه بشيء مخيف؛ وإما لأنه مُنعم فيرمزون إليه بمظهر من مظاهر العطاء والخير.

وما قصة دخول الصنم هبل أكبر الأصنام العربية إلى الجزيرة العربية منا ببعيد. فقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام أن عربياً واسمه عمرو بن لحي الخرارعي جاء من الجزيرة يطلب الشفاء في حمامات ماعين جنوب الأردن، ولما تعافى وعاد ماراً من مدينة البتراء، وهي مدينة مشهورة للعماليق وقد ألان لهم الصخر فصنعوا مدينة عظيمة، ونصبوا حجارة أصناماً رموزاً للعدالة وللإله ولكثير من المعاني، فسألهم عنها فقالوا: هذه آلهتنا نستسقيها فتمطر، ونستطعمها فتطعم، ونستشفيها فتشفي، فتأثر الرجل من حاله وأنه جاء للاستشفاء، فطلب منهم واحداً منها صنماً رمزاً لإله الشفاء فأعطوه، فعاد إلى الجزيرة ووضع الصنم في جوف الكعبة وهي أطهر بقعة، وأقدس مكان للعبادة، وهي أول حادثة كما يقال يدخل فيها ذلك الصنم الكعبة وسمّوه هبل، فجعل الناس يطوفون بالكعبة ونسوا رمزية الصنم للإله مع طول الزمن، فأخذوا يقدسونه ويقولون اعلُ! هُبل.

وهكذا أساف ونائلة صنمان صُنعا رمزين دالين على جبروت الخالق بسبب غضبه على رجل وامرأة زنيا في الكعبة.

فسخطهما الله فأقام الجاهليون مكانهما صنمين يذكران الناس بجزاء من يقترف المعصية ويغضب الجبار، ونسي الناس بعدها القصة فطافوا من حول الصنمين اللذين كانا رمزاً ليحل محل الرمزية تقديس الصنمين على أنهما إلهان.

أما لو سئلت أولئك الجاهلين والمشركين مَنْ الخالق؟ فإنهم بفطرتهم كانوا

يجيبون أنه الله، ومع ذلك كانوا يشركون، فهم كانوا يعترفون بالخالق رباً وأنه يخلق، وأنه يزرق، ولكنهم لم يكونوا يوحدونه في عبادتهم له، فكانوا يسيئون إلى ألوهيته مع اعترافهم بربوبيته واسمع قول الله تعالى فيهم:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

حتى هذا الإنسان الكافر يعترف تماماً إذا ما ألم به ضعف أو مرض أو مصيبة أنه يلجأ إلى الله بفطرته. وهناك قصص كثيرة تروى أنها ما قاله لنكولن في أحلك الأيام في الحرب الأهلية «بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق»(١).

وقصة ذلك الطبيب غير المسلم الذي يئس هو ومريضة من وجود دواء له بعد مرضه ثلاث عشر عاماً فنصحه أن يجرب أن يصلي وأن هناك أملاً واحداً بقي هو في السماء، وتوجه ذلك المريض إلى الله فعاده طبيبه بعد أسبوع فوجده قد شفي وتعافى.

وما معنى أن يتجه العبد بالدعاء إلى الله إلا ليؤ؟؟؟ بالمزيد من الإيمان بعد أن يجيب الله دعاءه.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٦١].

---

(١) انظر القصة بتفاصيلها في سعيد حوى: الله جل جلاله، دار القلم، دمشق، بيروت، د.ط، ١٩٧٥ ص ٧٣.

الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه

أكرم الله الإنسان بالعقل وميزه على سائر مخلوقاته به، وهذا العقل هو مجموعة عمليات المعرفة لهذا الإنسان من نظر وتفكّر وتفكير، وتدبر واستفسار، ومناقشة وتحليل وتعليل. كما خلق سبحانه كل مخلوقاته وفيها قابلية الانكشاف والتسخير لهذا الإنسان العاقل، ليصنع بذلك علاقة إيمانية بعمل هذا العقل وفاعليته وقابلية تلك المخلوقات واستعداداتها للعطاء.

فيصل العبد من هذا الكون إلى الله في جدل صاعد من معرفة المخلوق إلى استشعار عظمة الخالق، من النظر في حدوث هذا المخلوق وأن له بداية زمانية، ومجالاً مكانياً، وهيئة متغيرة، ونظاماً دقيقاً في عمله وتغيراته وتطوراته، وفي أداء وظيفته مما يجعل هذا العقل ينطق بالحق بأن إلهاً سابقاً لهذا الكون قد أعطاه وجوده وهداه إلى نظامه، وأنه مسؤول عن حركته وتغيره، وثباته وتطوره.

ولذا كان تعريف موسى لربه حين سأله فرعون عن رب العالمين الذي يدعوه موسى للإيمان به أجابه كما في تعبير القرآن بقوله تعالى:﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

إذن هناك مجالان كبيران يدلانك على الله سبحانه إذا نظرت فيما خلق: **أولهما:** الإبداع والصناعة والاختراع والخلق، النظر في الأسباب والعلل، وكل هذه سماها الله تعالى الخلْق وهو الإيجاد على غير مثال سبق، فهو الذي أبدع مخلوقاته إبداعاً. وشيئها بعد أن لم تكن شيئاً وأوجدها بعد أن كانت عدماً، وخلقها بعضها من بعض.

وأما المجال **الثاني:** للنظر: فهو في تنظيم الخالق وهدايته لهذه المخلوقات بحيث إذا نظرت إلى ما فيها من دقة نظام، وانتظام سير، وقيام بوظيفة متقنة، وما يكتنفها من رعاية وعناية، أيقنت أن لها رباً هداها بعد أن خلقها.

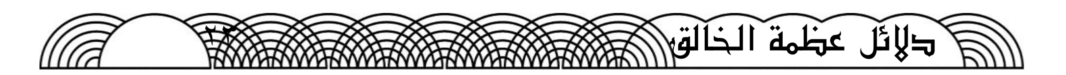
وكل الأدلة ووجوه الاستدلال بالعقل وسيلة وفي المخلوقات إنما يقوم على هذين الدليلين الكبيرين، دليل الخلق، ودليل الهداية أو دليل الإبداع أو الاختراع أو الصنع أو الحدوث أو السببية، ودليل النظام أو الهداية أو الرعاية.

وهناك ما لا حصر لها من المخلوقات تجد في كل واحد منها بل في كل جزئية منها، بل في كل ذرة من ذراتها إجراءً لهذين الدليلين على الله سبحانه.

والعقل بما هو موجود لا يمكن أن يقبل أو يصدق المصادفة، أي عدم التعليل وعدم النظر في هذا الكون دليلاً على الله، إذ أن رفض التعليل يعني انعدام عمل العقل، ولا يقبل الإنسان لنفسه أن يفقد هذا العقل إلا إذا كان مجنوناً، والمجنون لا تكليف له، ولا محاسبة له، ولا مسؤولية عليه، أو كان مكابراً جاحداً متناقضاً مع نفسه، مُهدراً لنعمة العقل التي من الله بها عليه، وحينئذٍ يفقد الإنسان معنى وجوده، وقيمة حياته، ومعنى إنسانيته، وهذا الصنف موصوف في قول ربنا سبحانه ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سبحانه﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

ووصف أولئك الذين عطلوا أجهزة الاستقبال الفطري فعطلوا عقولهم عن العمل الموصل للإيمان بالله فقال:﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. وقال:﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].



دليل الحدوث ورفض المصادفة

دليل الحدوث أي حدوث المخلوقات وأنها بدأت في زمان هو دليل الخلق أو الاختراع، أو الإبداع كما يسميه العلماء. ومفهوم الاستدلال بهذا الدليل على وجود الخالق سبحانه بالإجمال دون الدخول في تفاصيل المخلوقات، أن ما سوى الله سبحانه أي أن هذا العالم بما فيه من مخلوقات ينظر إليها، أولاً في طبيعتها، فهي ليست قديمة أزلية، بدليل واضح، فهي متغيرة، وهي وجدت بعد أن لم تكن، وأصبحت على حال لم تكن لها فمن الذي أعطاها بدايتها والزمانية، ومن الذي أعطاها وجودها بعد أن لم تكن ومن الذي غير حالها من حال إلى حال آخر.

لا يملك أحد أن يزعم ومعه دليل على ما يقول إذا ادعى أنها بنفسها هكذا منذ الأزل دون بداية، ذلك أننا بنظرها فيها نرى تغيرها، فما الذي رجح وجودها على عدمها وما الذي أخرجها من العدم إلى الوجود، وما الذي غيّر حالها وأوصافها، نحن نشاهد هذا التغير أمام أعيننا، لا يمكن أن تصدق عقولنا أنها هكذا كانت منذ الأزل. فلاشك إذن أن ثمة من أعطاها وجودها بعد أن لم تكن، ولاشك أن ثمة من يحكم سيرها وتغيُّرها، ولاشك أن سبباً وراء هذا الكون رجح الوجود على العدم، ورجح هذه الحالة على تلك، وهذا الوصف على ذاك.

وهل يمكن لإنسان يحترم عقله أن يدعي المصادقة في ذلك، أي أنها خلقت وحدثت وتغيرت، وتنوعت مصادقة بلا قدرة قادر ولا إرادة مريد؟! المصادقة العمياء أيمكن أن تكون سبباً للوجود المبُصَر؟ مستحيل على العقل أن يصدق ذلك. فلو أن مجادلك في وجود الله يزعم أن الكون نشأ صدفة، ثم لطمته كفاً على وجهه أيغفر لك هذا اللطمة إذا زعمتَ له أن وقوع تلك اللطمة على وجهه كانت صدفة؟ أيعفيك من المسؤولية لو زعمت له ذلك؟!

فكيف يزعم إذن أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات وما فيها من أنظمة وقوانين إنما جاءت مصادفة؟!

هل يصدقك شخص عاقل لو زعمت له أن صندوقاً مليئاً بالحروف المتناثرة دونما ترتيب، قد ألقيتها وإذا هي منتظمة مصفوفة تصنع كتاباً منتظماً في أبواب وفصول ولغة بجملها وألفاظها على هيئة ديوان من الشعر بأبيات شعرية بقوافيها وأوزانها في مختلف مقاصد الشعر من مدح وذم وفخر وغزل وحماسة وغير ذلك؟!

نقرأ قصة في تاريخ الجدل بين أبي حنيفة وجماعة من الزنادقة لا يؤمنون بالله، وانتهى اليوم بينهم وبينه، ليواصلوا النقاش في اليوم التالي، وتواعدوا على ساعة في الظهيرة، فتأخر أبو حنيفة في الوصول إليهم، فعاتبوه على التأخر فقال لهم معتذراً: لقد قدمت إليكم في الموعد المحدد ولكن حال بيني وبين الوصول إليكم أنني لبثت طويلاً في انتظار صاحب زورق على شاطئ دجلة لكنني لم أجده، ولما يئست وهممت بالرجوع وإذا بي بألواح من الخشب تتناثر قادمة بنفسها، وجعلت ينضمُّ بعضها في بعضها وتتسمر، وتترتب حتى صارت قارباً حسناً، فركبته ثم جئت إليكم فاعذروني. فقالوا: يا أبا حنيفة تأخرت علينا وتهزأ بعقولنا أيضاً! وهل يمكن لأحد أن يصدق أن ألواحاً تأتي بنفسها كما وصفت لتكون زورقاً؟ فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به، فإذا كنتم لا تصدقون أن زورقاً صنع نفسه بنفسه أو جاء هكذا مصادفة فكيف تصدق عقولكم وتريدون مني أن أصدق معكم أن هذا الكون المتقن العجيب جاء هكذا بنفسه مصادفة بلا خالق عظيم؟! فبُهت الزنادقة، وبُهت الذي كفر. فسبحان القائل ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].



دليل الخلق

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

يرفض العقل أن تكون المصادفة وراء هذا الكون، وأنه لابد من خالق خلق هذا الكون، له قدرة هي صفة بها يخلق، توجد ويعدم وله صفة إرادة بها اختار مخلوقه ونوعه، وشخصه ولونه، فمن هذا الخالق؟

والإنسان الذي يملك العقل به يفكر، وبنوره يهتدي لابد أن يجيب بصدق وموضوعية على السؤال القائل له من الخالق إذن؟ والاحتمالات العقلية لا تخرج عن أن تجيب بصدق بعد أن يطرح العقل احتمالاته:

هل الإنسان خلق نفسه وخلق غيره؟

هل الأقل من هذا الإنسان من المخلوقات من مادة صماء ميتة عمياء أم من حيوان لا يملك مقومات هذا الإنسان وعقله خلق هذا الإنسان وهذا الكون؟

أم أن هناك خالقاً لا يتصف بقدرات هذا المخلوق مادة وحيواناً وإنساناً هو الخالق وأنه لا يخضع لقانون الخَلْق ولا يتصف بصفات المخلوق من حدوث بعد عدم، ومن تغيّر من حال إلى حال، ومن خضوع لقانون مادي أو لزمن محدود؟

أمّا أن يُسلم الإنسان خلقه وسائر المخلوقات إلى مادة عمياء وحيوان دون مستواه، فلا يمكن أن يكون هذا الاحتمال ممكناً أو مقبولاً، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وفاقد العقل لا يخلق العقل الإنساني. وإن المحتاج لمن يغير حاله من حال إلى حال، وإن الذي يجري عليه الحدوث بعد أن لم يكن، والتغير والوجود بعد العدم لا يمكن أن يكون خالقاً.

أما الاحتمال الآخر وهو أن هذا الإنسان وهو أرقى المخلوقات هو الخالق؛ فلا يمكن أن يزعم عاقل أن الإنسان يخلق الإنسان ويخلق الكون سماءه وأرضه، مادته وجماده، ماءه ومعادنه، نباته وحيوانه، فهو وإن كان أرقى من المخلوقات الأخرى إلا أنه محتاج وحادث بعد عدم، ويتغير من حال إلى حال، وكل متغير محتاج، وكل محتاج لا يصلح أن يكون خالقاً، وكل ما يجري عليه الحدوث فلابد من محدث رجح وجوده على عدمه. ولهذا قال علماء العقل

والمنطق أن التغير أمارة الحدوث وأن الحدوث دال على مُحدث، وأن هذا المُحدث لا يصح أن يكون حادثاً بل لابد أن يكون قديماً لم يستمد الوجود من غيره، وأنه لا يجري عليه ما يجري على المخلوق من قوانين الزمان والمكان والتغير، والحدوث.

ولذلك سأل القرآن هذا الإنسان بعد أن رفضت فطرة الإنسان المصادفة، قال له ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ثم قال له: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ وجعل الفطرة بعقلها تجيب بلسان حالها دون أن تنطق لترى عجزها بما هي أعجز من تخلق نفسها فهي أعجز عن خلق السموات والأرض لأن الله تعالى يقول في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

ولهذا فإن الذي يرفض الحقيقة الكبرى في الاحتمال الثالث الذي لا مفر منه وهي أن الخالق هو الله، فقد وصفه القرآن بقوله ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾أي أنهم يفقدون فطرتهم وعقلهم وبديهيات عقولهم وإنسانيتهم فهم لا يوقنون. ثم لفت القرآن نظر هذا الإنسان ليفكر بعقله في تفاصيل هذا الخلق بمخلوقات الله فيه، ليجد الإنسان الإجابة التي لا مفر منها وهي أنه لا خالق إلا الله، ولنسمع بعض الآيات في هذا المجال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٥٧ - ٧٣].

الخالق يُغيّر ولا يتغيّر

وجود الخالق سبحانه حقيقة قبل أن يفكر فيها مفكر، فهو سبحانه كان ولم يكن معه شيء، وخلق كل شيء. وحريّ بهذا الإنسان أن يستشعر عظمة هذا الخالق الذي يخلق كل شيء، ويغير كل شيء، ويحرك ما يشاء، ويسكن ما يشاء، ويخلق ما يشاء ويختار. ولهذا فكل متغير لا يصلح أن يكون إلهاً، وكل ما يزعم الكفار من آلهة مدعاة ومزعومة لا يصلح أن يكون إلهاً، ولا يصمد الكفار إذا ما نوقشوا نقاشاً عقلياً، بسيطاً فضلاً أن يكون عميقاً للنقاش، ولا يملكون حجة ولا برهاناً، بل حتى ظناً مقبولاً من العقل يؤيد ظنهم أو يؤيد وهمهم.

ولنضرب على هذه القضية سياقاً قرآنياً في نقاش إبراهيم عليه السلام لقومه الذين زعموا أن الأفلاك آلهة فعبدوها، وكيف أنهم لا يملكون عليها دليلاً من العقل، بل العقل السليم ينقض عقائدهم ويبرهن على فساد معتقداتهم قال تعالى:

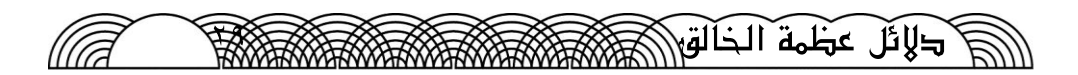
﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وخلاصة هذا الاستدلال بهذه الآيات أن الخالق هو الذي لا يتغيّر فإن المتغيّر لا يصلح أن يكون إلهاً، إذ ثمة هناك من يغيره من حال إلى حال، وكيف تستند المخلوقات في أمرها شأنها إلى من يغيب عنها ويتغير حاله. فإبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على قومه، ويتدرج معهم بدليل بسيط عقلي مفاده أن ما يزعمونه من دون الله من أفلاك ويصفونها بالإلهة لا تصلح لأنها متغيرة، وبالتالي هي مخلوقة وليست خالقاً. فخرج معهم في الليل وعند بزوغ النجوم سألهم سؤال استغراب أو على سبيل الفرض أتعبدون ذلك الكوكب

وتزعمون أنه إله انظروا وإذا بهذا الكوكب يختفي، أين إلهكم؟ اختفى. وهل الذي يختفي ويغيب يصلح أن يكون إلهاً؟! فقال: لا أحب الآفلين: أي لا أصدق ولا أومن بإله يغيب ويتغير. ثم تدرج معهم إلى سؤال وافتراض أن ثمة القمر الظاهر، أهذا إلهكم الذي تؤمنون به وتعبدونه؟ ثم اختفى القمر وغاب. وأقام عليهم الحجة مرة أخرى بفساد هذا المعتقد الذي يزعم أن القمر إله، وقد غاب وتغير، وبالتالي قال لهم: لابد من الهداية، وأن الهادي هو ربي الذي يهديني بعقلي إلى أنه هو الذي لا يغيب ولا يتغير، وأنه هو الذي يصلح بحق أن يكون إلهاً، ثم انتهى بهم إلى آخر كوكب ضخم كبير، وقد وضح النهار، وارتفعت الشمس وظهر الكوكب الأكبر في السماء هذا أكبر، فلما غابت الشمس وأفلت وتغير حالها أعلن لهم أنها لا تصلح أن تكون إلهاً، وبالتالي فإن ما زعمتموه من تأليه الفلك وعبادته إنما هو عقيدة باطلة، وأنه لم يبق لنا جميعاً إلا نؤمن بالخالق سبحانه، الرب الذي خلق السموات والأرض، وهو يغيّرها ولا يتغيّر ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩].

بهذا المنطق القرآني البسيط السهل الممتنع يخاطب القرآن عقل الإنسان، وهو منطق يحرك العقل، وينطلق معه من بديهيات فطرية تتجاوب مع الدليل القرآني في الاستدلال دونما تعقيد فلسفي أو منطقي جاف. ومع ذلك ناقش علماء التوحيد الملحدين والفلاسفة مستندين إلى القرآن، وناظمين منطقه بحجج عقلية منطقية تجريدية، سموها دليل الحدوث ودليل الإمكان فقالوا: العالم حادث وكل حادث لابد له من مُحدث. أو العالم ممكن ولابد له من واجب يرجح الوجود على العدم.

ولا يصح أن يكون هذا المحدث أو المرجح حادثاً أو ممكناً حتى لا تقع في حلقة منطقية باطلة وهي الدوران في فراغ إذ لو افترضنا أن هذا الخالق لاحق جاء بعد المُحدث للزم الدور الباطل، وإذا افترضناه سابقاً للحادث وهو مثله حادث وهكذا إلى مالا نهاية للزم تسلسل باطل، وبقي الحادث أو المخلوق بلا مُحدث أو خالق ضرورة تساوي العلل والمعلولات أي الخالقات والمخلوقات وهو استدلال فيه من الوعورة الأسلوبية المنطقية ما فيه.



دليل النظام

قلنا حينما سأل فرعون موسى عليه السلام عن ربه لم يجبه موسى عن حقيقة الرب وإنما أجابه عن مظاهر عظمة الرب من خلال آثار الرب سبحانه، وكانت تلك الإجابة بمثابة أدلة ظاهرة تجمع كل الأدلة، وتنتظم جميع مظاهر الكون الدالة على الله سبحانه، أجابه بقوله كما في كتاب الله تعالى. ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

وقد تحدثنا بإيجاز عن دليل الخلق، ونتحدث الآن عن المسرب الثاني في الاستدلال على الخالق وهو دليل الهداية أو النظام. فإذا كان دليل الخلق أو الحدوث بالنظر إلى وجود المخلوق وحاجته إلى خالق ليوجده بعد عدم. فإن ما في هذا المخلوق من دقة صنعة وانتظام أمرٍ، وهدايةٍ وتنظيم وعلاقات وارتباطات وقوانين، وانتظام سنن، وحركة وانضباط، وهيئات وأشكالٍ، وفوائد وخبراتٍ ونسبٍ وتوازن، وأقدار وكيفيات، وكميّات، وأعدادٍ، وإعدادات، ونزولٍ وصعودٍ، وضغط وجاذبية، وألوان وأكوانٍ، ومد وجزر وطعوم ونكهات، وحياةٍ وموت... إلى مالا يحصى من الاعتبارات في كل شيء من ذلك لآية دالة على حاجتها للخالق سبحانه، الذي يخلق ما يشاء ويختار. وإلاّ فمن أين لتلك المخلوقات كل هذه الدقة في الاعتبارات، فهي لا تملك بذاتها خلق نفسها كما لا تملك الأشياء بذاتها خلق اعتباراتها.

تلك الاعتبارات الموجودة في هذه المخلوقات التي لا يحصيها عدّ، ولا يملك عقل بشري أن يدعي أنه استوعب شيئاً منها فضلاً عن كثير منها فضلاً عن أسرارها وشيء منها أو أسرارها كلها، بما يجعل لهذا الكون رونقاً رائعاً وعملاً دقيقاً منتظماً وأدواراً متكاملة متناسقة، مرت عليها ملايين السنوات، وما زالت تؤدي أدوارها وتقوم بوظائفها بمنتهى الدقة في الوصول إلى أهداف خلقها، تسبح بحمد ربها، وتعلن عظمة خالقها سبحانه، وتقبل التسخير من هذا الإنسان ليقوم بدوره ووظيفته (هو الذي سخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه). وأودع في هذا الإنسان الفاعلية على التسخير كما أودع فيها القابلية والليونة لهذا التسخير، وإنه كما بقول الميداني رحمه الله «إن عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الإتقان والحكمة، فإنها لا شك ترفض رفضاً قطعياً أن يكون ترتيبه قد جاء على طريق المصادفة. لأن صورة الإتقان على سبيل

المصادفة في المركبات ذات الأعداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء كما أنها من المستحيلات في نظر الرياضيين (انظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس العقيدة ١٤٧-١٤٨).

وقد لفت القرآن أنظار الإنسان ليفكر بعقله في هذا الانتظام في المخلوقات في ميادين متعددة، ليشهد هذا العقل هذه الموجات من الدقة في النظام الدال على وجود الله وعلى عظمته، فيؤمن بالله الخالق ويسبح بحمده ويعبده حق العبادة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦- ١٦].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٣٦- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦- ١١].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٥- ٦٩].

العقل والحس والدلالة على الله تعالى

إن الله سبحانه كرم هذا الإنسان بالعقل. والتفكير مظهر من مظاهر العقل، والحس باب ومدخل تدخل منه المحسوسات بالإدراك الحسي إلى العقل لِيُنضج هذه المدركات الحسية. وبالتالي فالعقل هو الذي يدل والذي على المحسوسات ومدى صدقها؛ فقد تخدع الحواس صاحبها، فإذا نظرت إلى السراب البعيد في يوم حار ظننته ماء، فإذا اقتربت منه وزال خداع البصر لم تجد ذلك الماء المتوهَّم، وإذا نظرت إلى مروحة كهربائية من قريب ولونها أزرق مثلاً، فإذا ما شغلتها ودارت فراشتها بسرعة وجدت لونها قد اختلف وأصبح لونها أبيضاً، فما الحقيقة الحسية الصادقة؟ لاشك أن حركتها خدعت إحساسك بلونها. وإذا أخذت مسطرة مستقيمة، ووضعت جزءاً منها في سائل وجزءها الآخر خارج ذلك السائل خدعك البصر فتجدها منكسرة وليست مستقيمة.

ولهذا فلا يمكن للحقائق أن تعرف بيقين إلا بالعقل، ولهذا لا يمكن لإنسان عاقل يطلب منك أن تثبت له خالقاً عن طريق الحس لينظر إليه ويراه، فالرب ليس مادة يحيط بها إحساس رغم ضعف هذا الإحساس ومحدوديته وأوهامه، ولا يمكن للعقل الذي يدخل إليه المُدرك الحسي أن يحيط به، فالعقل مخلوق لا يحيط بالخالق. قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

ﭐلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

ومن هنا فقد اعتمد الخالق العقل ليدل العبد على الله، وإذا فُقد هذا العقل لم يعد الإنسان مطالباً ولا مكلفاً بالخطاب؛ لأن هذا الإنسان لم يعد مؤهلاً، إذ لم يعد لديه القدرة على العلم وبغير العلم يكون الجهل، ولا يمكن أن يكون الجهل طريقاً إلى معرفة الله سبحانه، ولهذا فقد طال؛ب القرآن الذين يكفرون بالله سبحانه بأية أثارة من علم على ما يزعمون، وحقيقة الأمر أنهم ليس لديهم علم يستندون إليه في دعواهم مما يبطل زعمهم.

قال تعالى:﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، ويقول سبحانه﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨].

ولقد وصل بهم الجهل والاستكبار إلى أن يطلبوا أن يروا الله تعالى بحواسهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

ووصل بهم الانحراف إلى مالا يعقل﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧].

وقد صرحوا بأنهم يريدون أن يروا الله جهرة ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٣].

وبالتالي فإن أولئك الجهلة الأغبياء يريدون إنكار وجود الله بناء على أنهم لا يرونه!! وهي مكابرة أيما مكابرة. وجهل أيما جهل، وجدال بغير علم ولا

عقل يحترم نفسه، وهو كبر واستكبار؛ لأنهم في حقيقة أعماقهم وحقيقة فطرتهم يعرفون أن الله موجود، وأنه خالق، وأنه ليس بمادة ولا بمحسوس، فكم من الأشياء يعترفون بها ويوقنون بوجودها ولا تراها أعينهم، ولا تعاينها حواسهم، فما معنى هنا أن يشترطوا رؤية الله بأبصارهم وحواسهم حتى يؤمنوا به؟! ولقد اشتهر على الألسنة والقصص قصة المعلم الشيوعي الذي ينكر وجود الله لأن حواسه لا تشاهده، ويريد أن يدخل الإلحاد في نفوس طلبته بأسلوب منطقي سخيف، فيسأل تلامذته: هل تروب الباب؟ فيجيبون: نعم، فيقول لهم إنه إذن موجود. هل ترون الشباك؟ فيجيبون: نعم، فيعلق إذن هو موجود. هل ترون السبورة ؟ فيجيبون نعم. فيعلق إذن هي موجودة. ثم ينتهي به الحقد والجهل والسوء فيسألهم: هل ترون الله.؟ فيجيبون لا. فيعلق إذن فالله غير موجود. ويظن أنه قد انتصر بإلحاده وأدخله في نفوس تلاميذه. فيستأذنه على الفور تلميذ نجيب، فطرته تنطق بالحق وبمنطق مشابه لمنطق الأستاذ، يستأذنه أن يسأل زملاءه التلاميذ، فيسمح له، فيسأل التلميذ زملاءه: هل ترون الباب؟ فيجيبون: نعم. فيعلق إذن هو موجود. هل ترون الطاولة؟ فيجيبون: نعم. فيعلق إنها إذن موجودة. ثم يسألهم سؤالاً ختامياً وبأعلى صوته هل ترون عقل أستاذنا، فيجيبون لا. فيعلق التلميذ منتصراً بحقه على باطل أستاذه: إذن فعقل أستاذنا غير موجود. فبهت الذي كفر

وما أجمل ما يعلق به الشيخ سعيد حوى رحمه الله على هذه القضية بقوله: «إن التصور الخاطئ لطريق معرفة الله قديماً وحديثاً من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله، مع أن مثل هذا التصور خطأ وخاطئ بالبداهة ؟ لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة، لأن المادة لا تخلق مادة، وإذا كان منتهى إدراك الحواس المادة المحسوسة فقط فلن يكون الله محل إدراكها»[١].

---

(١) سعيد حوى: الله جل جلاله، ص١٠-١١.

الأدلة العلمية على وجود الله

تحدثنا في ما مضى عن دليلين كبيرين ينظمان الفكر البشري على وجود الله، دليل الخلق ودليل النظام الواردان في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. وعرضناهما بمنطق عقلي استدلالي. ولتسهيل فهمهما نقدم مزيداً من الأدلة التفصيلية في استعراض بعض عناصر الموجودات فيما وصل العلم البشري في النظر فيها، واكتشاف شيء يسير من بعض حقائقها، وكيف لهذه المخلوقات وما فيها من دلائل عظمة الله، وآثار صنعه وإتقانه وإيجاده لها بعد عدم، وأنها لا يمكن أن تكون ما فيها من مظاهر وقوانين دقيقة ناشئاً من صدفة، أو من ذاتها، بل لابد لها من خالق عظيم سبحانه، أودع فيها حالة الوجود بعد العدم، والدقة والانتظام والغاية وأنها تنطق بلسان حالها دالة على الله، وتسبح بحمده كما يقول سبحانه:

﴿وَإِن مِّن شَىۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد تناقلت كتب العقائد المعاصرة هذه الأقوال لعلماء كونيين في الطبيعة وفي الكيمياء والفيزياء والفضاء والفلك، والكهرباء والمغناطيسية والرياضيات، وسائر العلوم البحتة.

بل لقد آمن بالله كثير من العلماء الغربيين وقد كانوا ملحدين، ولم يكونوا منحازين إلى دائرة الإيمان أولاً، ولكنهم من خلال ما توصلوا إليه من حقائق علمية بحتة، لم يملكوا إلا أن تعترف عقولهم وقوانين علومهم بأن وراء كل هذا الكون إلهاً أو رباً خالقاً أعطى كل شيء وجوده، وهداه ونظمه، وهو المسؤول عن حركته وانتظامه وقيامه بوظائفه ولقد كان كتاب الله «يتجلى في عصر العلم» وقد ألفه نخبة من علماء الغرب وترجم إلى العربية. وكتاب كريستي موريسون «العلم يدعو إلى الإيمان» وقد ترجمه محمود صالح الفلكي إلى العربية، ونقل عنها من الكتب الأولى في هذا الباب، وقد رجع لها المرحوم الشيخ محمد الغزالي في كتابه «عقيدة المسلم» والمرحوم الشيخ سعيد حوا في كتابه «الله جلّ جلاله» وعبد الرزاق نوفل في كتابه «القرآن والعلم الحديث» والشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه «الأدلة المادية على وجود الله»، وابن خليفة عليوى في كتابه «سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية»، حتى

أصبح نقل هذه الأدلة العلمية شائعاً لكل مستدل، وعلى لسان كل دارس. وسأنقل شيئاً من تلك الأدلة ومن ذلك[١] (هامش).

يقول رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون في فرنسا في كتابه «مصير البشرية»: «إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ربط قانون «كارنوت – كلوزيوس» ويدعى أيضاً بالقانون الثاني في الِترموديناميك الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية، فقد أثبت العالم الفيزيائي بولتزمان أن التصور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تصوراً نحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة، وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حتى تزول جميع التناظرات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام»[٢].

إذاً فمن المسؤول عن عدم الوصول إلى هذا الظلام التام إنه الله سبحانه.

وقد حاول العالم إدوارد لوزكيل شرح هذا القانون[٣] وكيف يثبت أن لهذا الكون بداية وأنه خالقاً عظيماً هو الذي أعطاه بدايته وأن من يزعم أن هذا الكون موجود منذ الأزل بنفسه دون الحاجة إلى خالق إنما هو واهم ومخطيء ومتصادم مع العلم وحقائقه. وذلك أن العلم يثبت أن ثمة انتقالاً حرارياً مستمراً من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، وليس العكس. ويعني هذا على مدار هذا الزمان السحيق في القدم فمن المفروض بحسب تطبيق هذا القانون الحراري اليقيني أنه يتجه الكون إلى حالة من التوازن التام أو التساوي التام في درجة الحرارة حتى تصل إلى الصفر المطلق؛ وحينئذٍ لا يكون هنالك أية عملية كيماوية أو طبيعية، وبالتالي تنتهي الحياة من كل الأشياء الحية في هذا الكون، لأن الطاقة قد استهلكت وتوقف كل نشاط في هذا الكون. ولكن الحقيقة الماثلة أمامنا أن الحياة مستمرة في هذا الكون وأن الانتقال الحراري مستمر، إذن من أين تأتي هذه الطاقة؟ ومن الذي يزود المادة بهذه الحرارة حتى لا تنعدم الحياة؟ لا يمكن أن تكون المادة نفسها تزود نفسها بهذه الطاقة، إذن هنالك خالق ليس مادياً هو الذي يزود المادة بهذه الطاقة أصلاً، وهو سبحانه الذي يزود الكون

(١) للاستزادة من هذه الكتب، راجعها ففيها نقولات علمية كثيرة، اقتبست بعضاً منها بما يناسب المقام.

(٢) سعيد حوى: الله جل جلاله، ص٢٢.

(٣) المرجع السابق.

بهذه الطاقة لتتوهج الشموس، وتزود الكون بحرارة مستمرة، فهو خالق أولاً، وهو يخلق في كل لحظة لأن الانتقال للحرارة من الأجسام الحارة إلى الباردة تقتضي التزويد المستمر لمصادر الحرارة بالطاقة أو المادة المنصهرة للتزويد بالطاقة.

وهنا أريد أن ألفت النظر إلى أن الله سبحانه ليس مجرد رب خلق، وانتهى الأمر بل هو خالق ويخلق وباستمرار؛ فإن سبحانه خالق قادر وباستمرار، وليس الخلق لحظة مضت، فكما هو خالق دائماً والخلق يتجدد فلابد أن نؤمن به ونستشعر عظمته، وأن يتجدد هذا الإيمان في نفوسنا وهذا الاستشعار بعظمته سبحانه؛ فلنعبده بتجدد وباستمرار.

فالإيمان به خالقاً ليس إيماناً جامداً «ستاتيكياً» وإنما هو إيمان حيوي «ديناميكي»؛ فليس الخلق صنعة آلة وانتهت علاقة المصنوع بالصانع، بل إنه سبحانه في كل لحظة تكون علاقته بمخلوقاته فهي تجري قوانينها وحياتها بأمره وحفظه؛ فكما لا يغيب الخالق عن مخلوقاته قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلابد للمؤمن أن لا يغفل قلبه عن استشعار عظمة خالقه، واستشعار القيام بعبادته.



الأدلة العلمية على وجود الله

الذرة والشمس

وهذا دليل من قوانين الحركة الإلكترونية للذرة، فمعلوم علمياً أن الكون مركب من عناصر وأن العناصر مكونة من ذرات، فالذرة هي أصغر شيء في المادة، وأن كل ذرة مؤلفة من شحنات كهربائية، سالبة وموجبة ومتعادلة، تسمى السالبة منها إلكترونات والموجبة منها بروتونات والمتوازنة أو المتعادلة نيوترونات، وأن الذرة لها مركز أو نواة مكونة من البروتونات الموجبة والنيوترونات المتعادلة، وأن الالكترونات تشكل هالة تدور حول مركز النواة وهي أشبه بالكوكب السيار للذرة، وأنها تدور بسرعة هائلة وبحركة دائرية إهليلجية[1] أي ليست دائرية تماماً، ولولا دوران الالكترونات حول مركز الذرة لكل عنصر وبسرعة كبيرة لجذبت البروتونات الموجبة الالكترونات السالبة نحو نواة الذرة، وانعدمت المسافة بين نواة الذرة وكوكبها الذي يدور حولها.

وحينئذ حصل هذا أو توقفت حركة الالكترونات في ذرات المادة في كل عناصر الكون لأصبح جرم الكرة الأرضية بكاملها بحجم كرة البلاستيك الصغيرة التي نلعب بها التنس أو بحجم بيضة دجاجة صغيرة. إذن من الذي أعطى الإلكترونات حركتها الدائرية من حول النواة؟ ومن الذي جعل هذا البُعد بين الإلكترونات الدائرة والنواة؟ والتي يقول العلم إن هذا البعدبين النواة وإلكتروناتها الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة الدائرة حولها تقريباً. ومن الذي جعل هذه الحركة الدائرة مستمرة؟ ومن الذي ضبط سرعة هذه الحركة، حتى لا تتسع المسافة بين الالكترونات والنواة فيتسع الكون أو تضيق فيضيق الكون؟ ثم إن الحركة لابد لها من زمان بدأت فيه، وهذه البداية هي بداية وجود ذرة المادة أي وجود المادة نفسها.

ولا يمكن أن يكون ذلك كله من هذه الذرة نفسها، بل لابد من خالق خلقها، ونظمها، وقسمها، وأعطاها خصائصها من شحنة سالبة إلى موجبة إلى متوازنة، فضلاً ممن أن لكل عنصر من العناصر عدداً ذرياً ووزناً ذرياً يختلف عن غيره من العناصر فهو سبحانه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ثم فلننظر إلى هذه الشمس التي تُزود الكون بطاقة مستمرة، فمن أين تأتي هذه الشمس بطاقتها، ولماذا لم تنفذ طاقتها وتنقص وتهمد؟ وكيف تستمر بتقديم

---

(١) المرجع السابق ص٢٤.

هذه الطاقة وبانتظام لو نقصت طاقتها أو انتهت ؟وكيف للحياة أن تستمر بدون هذه الطاقة ؟ والشمس إنما هي التي نعرفها ونحن نعيش في الأرض، والأرض تقع في مدارها وثمة شموس كثيرة لا يعلم عددها إلا الله، ولقد وصلت طاقة من أحد هذه الشموس وهو نجم (السماك الرامح) في القرن الماضي في ١٩٣٣ فكان شعاع واحد منه فقط كفيلاً بطاقته المتولدة منه أن يضيء معرض شيكاغو بأمريكا(١). تُرى من الذي يجدد المادة المنصهرة داخل هذه الشمس وسائر الشموس لتتولد منها هذه الطاقة الهائلة والتي يُفقد في كل منها أوزان من هذه المواد؟ إنه مما لاشك فيه أن رباً أو إلهاً خالقاً هو الذي أعطى هذه المادة وجودها، وقابليتها للانصهار والتحول إلى طاقة، وهو الذي يعوض النقص فيها باستمرار، وإلا فقدت نفسها ودمر العالم وانتهت الحياة. فسبحان الخالق الذي جعل الشمس آية من آياته والقائل:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[الشمس: ١] و﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾ [النبأ: ١٣] و ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[الأعراف: ٥٤] و ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

(١) المرجع السابق ص ٢٦.



الأدلة العلمية على وجود الله

دقة الخلق

الناظر إلى مفردات هذا الكون وما فيه من علاقات بين الأشياء يمكن أن يسأل نفسه لم هذه الأشياء في هذا الزمن دون زمن آخر؟ ولماذا لكل منها صفة وليست صفة أخرى غيرها؟ ولماذا لها مقدار معين ومحدد وليس لها مقدار آخر من ملايين الاحتمالات الأخرى؟ كل ذلك لأن إرادة حكيمة وراء خلقها من علم وثيق ووراء اتصافها بهذه الصفات، ولو اختلفت صفاتها ومقاديرها وعلاقاتها لاختل نظام الكون كله ولم تكن هذه الحياة على هذا الوضع المرتب والمنظم ودقة.

ويذكر القرآن الكريم في آياته ليعمل الإنسان عقله وهو يشاهد هذا الكون وما فيه من دقة دالة على الخالق عظيم يقول تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] وينبه الناس ليوقظ فطرهم، وليعملوا عقولهم يقول سبحانه﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[سورة الغاشية: ١٧ - ٢٦].

ولننظر في بعض ما في هذه المخلوقات من صفات وعلاقات وتقديرات دالة على عظمة خالقها سبحانه، وأنها لا يمكن أن تكون من غير خالق أرادها على هذه الأوضاع، وبهذه الصفات، وعلى هذا التقدير مصداقاً لقوله سبحانه﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ فانظر إلى قوله سبحانه وتجليات إرادته في الرزق من واقع الأرض ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٢] وانظر إلى تجلي هذه الإرادة

في الرزق وتجليات إرادته في التنويع في الألوان في مخلوقاته...

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠- ١١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ولولا هذه الأرزاق لا يمكن أن تكون حياة على وجه الأرض. وانظر إلى هذه الجبال الرواسي التي تمثل الأعمدة والأركان المثبتة للأرض، إذ لولاها لانساحت الأرض ولتناثرت. وانظر إلى هذه العناصر في الكون التي لا لولا أنها تتحد بعضها مع بعضها الأخر وبمنتهى الدقة لما كان ثمة ثرية على هذه الأرض. وبالتالي فلا بشر ولا نبات ومن ثم فلا حيوان ولا إنسان. وانظر الحكمة في الخلق فلو كانت مياه المحيطات حلوة وليست فيها ملوحة لتعفنت كل المخلوقات الحية التي فيها، وهي سلة غذائية ضرورية لطعام هذا الإنسان.

وتخيل لو لم تتحد ذرات الكلور مع الصوديوم لما كان ثمة ملح ولو لم يكن ملح لم تكن حياة. وانظر إلى الهواء وهو من عناصر أو غازات مختلطة بدقة متناهية في الكون، بحيث لو اختلت هذه النسبة المقدرة من خالقها لاختل الكون. ونسبة الأوكسجين مثلاً ٢١% فلو زادت في الكون لتصبح ٥٠% لاحترق كل

شيء على وجه هذه الأرض. ولو نقصت إلى ١٠% لاختنق الكثير من المخلوقات وانتهت الحياة على وجه الأرض[1].

ولهذا فمن حكمة الله عز وجل أن يحافظ على هذه النسبة الضرورية للحياة فثمة مصانع للأوكسجين في النهار عبر عملية التمثيل الضوئي للنبات في ضوء أشعة الشمس فحاجة المخلوقات في النهار للأوكسجين أكثر منها في الليل نظراً للنشاط الحيواني في النهار، وفي الليل تكون عملية معاكسة تماماً لعملية النبات فيقوم بعملية النتح لتوليد ثاني أكسيد الكربون من اجل الحفاظ على النسبة بمعادلة بين الزائد منه من تصنيع النهار لتستهلك في الليل، ويعود التوازن ويقول العلماء: لو أن الشمس نقص إشعاعها إلى النصف لتجمد كل حي، ولو زاد إشعاعها فتضاعف لاحترق كل شيء. ويقولون: لو أن قشرة الأرض الحالية أسمك مما هي عليه الآن بعشرات قليلة من السنتمترات لامتصت كل ما في الأرض من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون ولهلك كل شيء فيه حياة، بل لم تكن له حياة إطلاقاً.

ولو كان القمر المحدد بُعدُه عنا بدقة حالياً لو ابتعد عنا عشرين ألف ميل لكانت قوة المد في مياه المحيطات بحيث يُغرق وجه الأرض كلها مرتين في اليوم، ولحطم الجبال المثبتة للأرض. وهذا كله ينبهنا إلى خطورة اعتداء الإنسان على البيئة وعلى صنعة الخالق سبحانه، بما يسمى بالاحتباس الحراري الذي يهدد مناخ الأرض ومخلوقاتها، وبهذا نقدّر دقة الخلق في الكون وعظمة التقدير الرباني فيه دالاً على وجود الله وعظمته كما يقول تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

---

(١) سعيد حوى: الله جل جلاله، ص ٤٠.

الأدلة العلمية على وجود الله

الشمس والقمر

- يثبت العلم بل ويدل على عظمة الخالق سبحانه ودقة تنظيمه للكون، فالكون فيه ما لا حصر له من الآيات على وجود الله وعظمته، يقول العلم: لو كان محور الأرض معتدلاً بدل أن يكون مائلاً بمقدار ٢٣ ْدرجة مع سكون الأرض؛ لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، وكونت قارات متجمدة بحيث يصبح الصيف في مناطق دائماً إلى الأبد، وفي المناطق الأخرى شتاءً إلى الأبد، ولهلك الناس والحياة والأحياء.
- يقول العلم إن كوكب عطارد لا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، وبالتالي فقسم منه المقابل للشمس نهار دائم، والوجه الآخر ليل دائم، فلماذا جعل الله تعالى الأرض تدور حول محورها وتدور حول الشمس؛ فمن دورانها حول محورها بالتالي تتعرض لطلوع الشمس خلال أربع وعشرين ساعة، بحيث يكون في كل أرجائها نهار يتبعه ليل، ومن دورانها حول الشمس تشكل الفصول الأربعة؛ الشتاء والربيع فالصيف فالخريف، وهكذا فهذان الدورانان يجعلان الحياة على وجه الأرض إذ لو لم يكن هذا لهلكت الحياة والأحياء. فمن الذي أحكم هذه القوانين من الحركة والدوران وبمنتهى الدقة؟ إنه الله سبحانه.
- وتعالَ إلى حكمة الله البالغة في دوران الشمس حول نفسها، ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، وإلى التقدير الدقيق العظيم لسرعة دوران كل من الشمس والأرض والقمر مما يولد الليل والنهار والفصول الأربعة، ومما يساعدنا بدقة الحساب للزمن في الأيام والأشهر والسنوات الشمسية والقمرية، وما يربط الله تعالى بتلك السنوات والأشهر أنظمة دقيقة لعباداتنا من صلاة وصيام وحج، وما يتجلى فيها من حكم حياتية وكونية واجتماعية وإنسانية وبما لا يحصى من الحكم. فمن الذي أحكم هذا الخلق وأتقنه، وصنعه ونظمه، وحافظ عليه ليؤدي دوره ؟ إنه لاشك الخالق العظيم سبحانه قال تعالى:﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا

ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[سورة يس: ٣٨ - ٤٠].

واسمع ما يقول علماء الفلك من الحقائق حتى توقن بعظمة الخالق عن هذا التقدير العظيم من العزيز العليم في سرعة حركة الشمس والأرض والقمر حتى يحصل هذا التقدير، وينتظم أمر الحياة بهذا النظام الدقيق لتلك المخلوقات في دورانها وحركتها(١).

يقول العلماء: الشمس تسير عبر المجرة بسرعة ٢٤٠ كم/الثانية الواحدة، وتتم دورتها حول محور المجرة فيما يعرف بدرب التبانة في مدة قدرها (٢٠٠ مليون سنة) وعند تمام الدورة تغيّر المجموعة الشمسية مواقعها فيصبح البر بحراً والبحر براً، ولعل ذلك هو يوم استقرارها في قوله تعالى﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ وفي ذلك اليوم تهلك الكائنات الحية جميعها. بينما سرعة القمر في دورانه حول الأرض (١٨٤) كم يومياً أي بسرعة ١٦كم/ساعة تقريباً بينما سرعة الأرض حول الشمس بمعدل (١٧٧٠) كم/ الدقيقة الواحدة.

ولهذا فالقمر بطيء فالناظر إليه يراه يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الأسفل وإلى الأعلى ولا يتجاوز منازله الأربعة تربيعاً أولاً في هلاله، فبدراً فتربيعاً ثانياً فمحاقاً، فتتولد منازل القمر بسبب المقارنة بين سرعة الشمس السرعة التي تبلغ أضعافاً مضاعفة من سرعة الأرض، وسرعة الأرض تبلغ أضعافاً مضاعفة من سرعة القمر هكذا:

- سرعة الشمس في الساعة (٨٦٤.٠٠٠) كم
- سرعة الأرض في الساعة (١٠٦.٢٠٠) كم
- سرعة القمر في الساعة (١٦) كم

ويتولد نور القمر من عكسه لأشعة الشمس، وتتولد منازله بسبب وضعه النسبي بين الشمس والأرض.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ

(١) انظر بتفصيل ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية، ط٣، دار الإيمان، دمشق، ١٩٨٨ ١/البرهان الخامس عشر والسادس عشر ص ١١٢ – ١٢١.

ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

الأدلة العلمية على وجود الله

آية الليل والنهار ١

يقول الحق سبحانه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١] فالله سبحانه خلق السموات والأرض، وخلق ما بين السموات والأرض من شمس وقمر ونجوم، وجعل لهذه المخلوقات حركة وانتظاماً يتشكل من حركاتها الظلمة والنور، والليل والنهار، وعبر عن السموات والأرض بالخلق وعن الليل والنهار – بالجعل أي التنظيم كما في الآيات الأخرى يقول سبحانه﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]. ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [الزمر: ٥]. وقال سبحانه ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠].

وإذا ما نظرنا في عظمة الإعجاز في وصف خلق السموات والأرض، وإخراج الليل والنهار ظاهرتين من نعم الله الكبرى علينا، وهما متولدان من حركة دقيقة من مخلوقات في السموات ومن حركة الأرض فيما هو معروف علمياً كحقائق نجد ذلك كله دالاً على عظمة الخالق سبحانه الذي خلق كل شيء وهداه ونظمه.

ولننظر إلى ما يقول العلم من حقائق حول الليل والنهار وإلى ما لفت الله نظر البشر إليه في القرآن ليدله على الخلق سبحانه ليؤمن به ويعبده وحده لا شريك له.

كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الليل يسبق النهار[1]، وليس العكس أي أن النهار يسبق الليل، فالله تعالى يلفت نظرهم إلى أن هذا الاعتقاد غير صحيح، وأن هذه المعادلة غير صحيحة، فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل، فالليل والنهار جاءا من حركة تولدت مما خلق الله في السموات والأرض من حركات تمثل قانوناً ولد هذه الظاهرة الدقيقة، وهي حقيقة ثابتة تسير على نظام دقيق إلى قيام الساعة. وذلك ظاهر من كروية الأرض من شكلها فالأرض ليست على شكل هندسي مثلث أو مربع أو مستطيل وإنما على شكل كروي أو دائري، إذ لو كان هذا الشكل غير كروي لوجد في ساعة الخلق النهار أولاً، وكانت كل الأرض مضيئة، ولكن الله تعالى خلق الأرض على شكل كروي ليخلق أو ليجعل الليل والنهار مخلوقين معاً ولذلك قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥] وبهذا الخلق الكروي للأرض وهذا التسخير للشمس والأرض، يكون نصف الأرض مضاءاً والنصف الآخر مظلماً معاً، ولولا هذا الشكل الهندسي الدائري لم يكن الليل والنهار متساوين ومخلوقين معاً[2].

وجدير بالذكر بأن العلم الحديث أثبت أن علماء الفضاء حينما نظروا إلى الأرض بعد تجاوزها فوجدوها من الفضاء الخارجي لها أن نصفها مظلم ونصفها الآخر مضيء وصوروها على تلك الهيئة.

ثم عبر الخلق سبحانه بأنه جعل الليل والنهار (خِلْفَةً) أي يخلف كل منهما الآخر، وهذا معناه أن أحدهما لم يبدأ ثم خلفه الآخر، لأن البداية في خلق أحدهما يعني أنه لم يسبقه مقابله حتى يخلفه، فإذن فإن الله تعالى خلق الليل والنهار معاً يخلف أحدهما الأخر على الأرض، أما هما فموجودان معاً، فنصف الكرة الأرضية نهار ونصفها الآخر في الوقت نفسه ليل، وتتحرك الأرض حول محورها في مقابل الشمس فيبدأ يظهر نهار على جزء من وجه الأرض يخلفه ليل في مقابله على جزء آخر من الأرض من الجهة المقابلة، وهكذا

---

(١) محمد متولي الشعراوي، الأدلة المادية على وجود الله، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨٦.

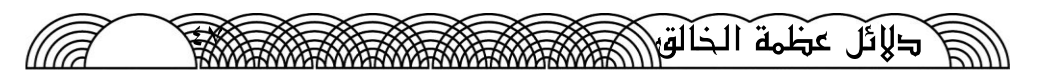
(٢) انظر التفاصيل، الشعراوي، الأدلة المادية، ص (٨٦ – ٨٧، ٩٠، ٩٣). وانظر للتوسع ابن خليفة عليوي، البرهان السابع عشر، ص ١٢٢ – فما بعدها.

يستمر الحال، وكل واحد منهما يطلب الآخر أو يطارده ويخلفه في موقعه، ولا يمكن إطلاقاً أن يضيء شيء من وجه الأرض فيصبح نهاراً إلا إذا أظلم شيء مقابل من وجهها أي خَلفَه ليل في مقابل ذلك الجزء على سطح الكرة الأرضية، إذ كيف يخلف ليل نهاراً إن لم يكونا موجودين ومخلوقين معاً؟؟

وهذه هي الحقيقة العلمية التي أثبتها العلم بدوران الأرض حول محورها في مقابل الشمس، فيتعاقب الليل والنهار فعلاً فقدْر ما تنقشع غشاوة الليل تظهر نصاعة النهار، قال تعالى في تصوير هذه الحقيقة العلمية الدالة على عظمه خلقه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وأثبت العلم أن الليل يهجم على النهار من فلك القمر بنفس السرعة التي ينحسر فيها النهار عن الأرض، وسرعة كل منهما مساوية لسرعة الأرض.

وانظر قوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].



الأدلة العلمية على وجود الله

آية الليل والنهار ٢

ومرة أخرى مع الليل والنهار، وهما آيتان دالتان على قدرة الله تعالى على الخلق وعلى حكمته في تنظيم مخلوقاته قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٩]، وقال سبحانه ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٢٧] فالولوج هو الدخول، والنهار يدخل في الليل والليل يدخل في النهار؛ أي أنهما يتداخلان ويتعاقبان تعاقباً مستمراً بسبب كروية الأرض كما قلنا سابقاً. وكيف يشرح العلم هذه الظاهرة الدالة على عظمة الله سبحانه في الخلق والتنظيم.

يقول العلماء: إن الشمس تضيء بشكل دائم نصف الكرة الأرضية الذي يقع أمامها في حين يبقى النصف الآخر مظلماً، وتدور الأرض حول محورها أربعاً وعشرين ساعة، فتظل الإضاءة ثابتة على نصف الأرض الكروي الذي يواجهها في حين يبقى النصف الآخر مظلماً في نفس الوقت. إذن النهار لا ينقطع والليل لا ينقطع. وهذه العملية تتم بتداخل كل منهما في الآخر، فالأرض وهي تدور حول محورها يدخل نهار على بقعة جديدة بسبب حركة الأرض، فيدخل ظلام أو ليل على منطقة أخرى على سطح الأرض.

إذن يفهم من هذا معنى ما وصف الله تعالى قبل أن يعرف الإنسان من خلال علومه الكونية كيف يولج الله الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

وتعال معي لنعرف كيف يشرح العلم ظاهرة انسلاخ النهار من الليل فيقع الظلام في قوله تعالى:﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧].

يقول العلم الكوني: يتكون ضوء النهار بسبب التأثر بأشعة الشمس من خلال الغلاف الجوي حتى ارتفاع مائتي (٢٠٠) كم فقط، وتلك المنطقة تواجه وجه الشمس دائماً، وهي تنسلخ من باقي جسم الغلاف الجوي المظلم تماماً كما

ينسلخ جلد الشاة من الشاة فعلاً، إذن الغلاف الجوي المظلم هو الكتلة الأرضية، وهي تشبه جسم الشاة وهو الليل المظلم. أما الكتلة المضيئة منه المواجهة للشمس فهي التي تمثل جلد الشاة الذي ينسلخ عن جسمها وهو النهار المضيء، فسبحان من خلق وسبحان من وصف العملية قبل أن يعرفها العلم وقبل أن يصل إليها العلماء.

وتعال معي إلى هذه الملاحظة التي سجلها رواد الفضاء أثناء صعودهم في المركبات الفضائية فكلما صعدوا إلى أعلى في الخلاف الجوي أصبحت الدنيا ظلاماً حتى يصلوا إلى نقطة معينة في الفضاء الخارجي، فيصبحوا كالعميان تماماً. وهذا يعني بالنسبة لهم فَقْد النهار تماماً حينما يخرجون من الغلاف الجوي للأرض، إذن فالليل والنهار إنما هما بالنسبة للأرض، مع أن الشمس بعد هذا الغلاف الجوي للأرض، فلا نهار ولا ليل فيها، فأشقتها دائمة ولكن أين تذهب أشعتها؟ إنها تُمتص بواسطة طبقات الجو وتصبح السماء سوداء مظلمة، وتزول زُرقة لونها. أليس هذا هو ما لفت إليه ربنا سبحانه أنظارنا في كتابه دالاً على عظمة خلقه لنؤمن به قبل أن نصل إليه تجريبياً بعلومنا فلنسمع قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤- ١٥].

وتعال معي إلى معرفة ما هو النهار وما علاقة الشمس به؟

أثبت العلم أن النهار هو غلاف أرضي في صورة جيوب ضوئية تحوي جزيئات مادية دقيقة في الغلاف الجوي، وهي التي تتجمع أشعة الشمس فيها، وتعكسها على الأرض فتنتشر الضياء فيها، بينما تنعدم هذه الجيوب في الفضاء الخارجي أي بعد الغلاف الجوي للأرض؛ ولذا فلا انعكاس لأشعة الشمس، ويكون هناك ظلام دامس رغم سطوع الأشعة في ذلك الفضاء؟ إذن من المسؤول عن الضوء إنه النهار وهو عكس الفكرة التي كانت سائدة أنها الشمس. ولنستمع إلى قول الخالق سبحانه الذي يلفت نظرنا لهذا بدقة إلى هذه الحقيقة العلمية الدالة على عظمته وإعجاز كتابه وآياته الكونية وآياته القرآنية:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١ - ٣].

فسبحان من خلق، وسبحان من أنزل الكتاب، وأعجز الخلق بعظمته ومعجزة نبيه ﷺ.

الأدلة العلمية على وجود الله

السماء دالة على عظمة الله

انظر إلى السماء المرفوعة تعلو الأرض، وهي مرتفعة إذا نظرنا إليها من الأرض، وهي هذا الفضاء الذي نرى فيه الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وقد رُفعت وزُينّت بزينتها من الكواكب، ولا ترى فيها أي عيب أو تصدع أو شق وقد وصل علم الفلك إلى التنبؤ بدقة بحدوث ظواهر الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، من حيث زمن هذه الظواهر باليوم والساعة والدقيقة والثانية.

واستنبط العلماء قانوناً كلياً من دورات الكواكب وثبات دورات المجموعات الشمسية بمعدل ثابت أوصَلَهُ هذا القانون إلى التنبؤ بوجود كوكب مجهول في مكان حددته الحسابات الأرضية دون أن يكون مرئياً، وقد نجح العالمان «آدمز ولامزير» في تقديم حساب رياضي أوصل العلماء إلى توجيه تلسكوب مرصد برلين إلى نقطة محدودة في الفضاء في السماء، واكتشفوا كوكباً سياراً جديداً هو «نبتون» وهذا ما يدل على ثبات في قانون إدارة ما في السماء من كواكب ونجوم. أليس ذلك هو ما لفت ربنا سبحانه نظرنا إليه دالاً على أنه هو سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

حيث قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وقال تعالى﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. ما هذا الميزان؟ وما هذه المعادلة الدقيقة التي تحكم رفع السماء ودورة النجوم ومواقعها وحركة الفلك والأجرام السماوية في هذه الخارطة الرائعة في السماء بحيث لا تتصادم ولا تتفلت الأجرام من حول شموسها[١]؟.

إنه الميزان الذي حكم الله له هذا الكون ونظمه، تقول المعادلة العلمية التي تحكم الخريطة الكونية في السماء: إن تأثير قوى التجاذب بين هذه المخلوقات أي الأفلاك حول شموسها وهي تدور حولها = تساوي تأثير طاقة الحركة وبشكلٍ مضادٍ لها، وهذه المعادلة أو هذا الميزان هو الذي يشير إليه قوله تعالى

---

(١) راجع في هذا بالتفصيل والتدقيق البرهان الثالث عشر في كتاب ابن خليفة عليوى، سبعون برهن، ص (٩٧- ١٠٨).

﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] ذلك أنه لو كان أحد طرفي هذه المعادلة مختلاً بحيث زادت قوة التجاذب عن طاقة الحركة لسقطت السماء على الأرض، وحينئذٍ تحطم النجوم الضخمة الرهيبة والكواكب الضخمة الأرض تماماً بعد أن يقع بعضها فوق بعض وبعد تصادمها. في حين لو قلَّت قوة التجاذب عن طاقة الحركة المضادة لها لانفلتت الأجرام السماوية من أفلاكها حول شموسها، وانطلقت على غير هدى، ولاصطدمت المجموعات السماوية من نجوم وكواكب وحطمت الأرض وما عليها. وهنا تشهد عظمة دقة الخلق وعظمة الخالق الذي خلقها على هذا الحال، وضبطها بقوانين ثابتة ومعادلات دائمة، وسبحان القائل والدال على هذه العظمة في كتابه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

ومن الدال على عظمة هذا الخلق ودقة هذا الميزان في حين تَعادُل الطاقة المفقودة من الغلاف المضيء والطاقة المنسابة من الباطن بنفس المعدل، وهذا المسؤول عن حالة التوازن هذه في الضبط والتوازن بين الطاقة والتوازن في السطح، وكل هذا يجعل هذه الأجرام السماوية بعد أن رفعها في حالة توازن دائمة في ذاتها فضلاً عن توازن دائم فيما بينها من حيث أبعادها والمسافات فيما بينها، وكل منها يسير في دورته دون تصادم مع الآخر. وانظر إلى دقة صنع الله الذي جعل المسارات لهذه الأجرام السماوية في الفضاء منحنية وليست تسير في مسارات مستقيمة، فيسمح لجميع هذه الأجرام بالسباحة في الفضاء دون التصادم فيما لو كانت المسارات مستقيمة.

وقد أثبت العلم أن ثمة تجاذباً بين أجزاء الكون كله بشكل أقواس، وهذه تعمل عمل الأعمدة في البناء، فكل كوكب يتجاذب مع الآخر بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الكوكبين مقسماً على مربع المساحة بينهما وهذه القوة هي التي تمسكه في مكانه أو في فلكه بحيث يظل كل جرم وكل شيء في أبعاد متساوية من بعضها، وكأنها مقامة فوق أعمدة لا تُرى فسبحان الخالق القائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾[الرعد: ٢]، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ



ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

الهداية في المخلوقات دالة على الله

بعد أن عرفنا أنه لا خالق إلا الله، وأنه لا يملك أحد سواه أن يخلق شيئاً؛ فمن باب أولى لا يستطيع أن ينظم شأنه وحياته وحركته وأمره أحد سواه، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٧٢ - ٧٣] ولماذا يتحداهم الله سبحانه ويتحدى من يزعمون أنهم آلهة يقدسونهم من دون الله، بخلق الذباب، فهي حشرة صغيرة، وحشرة عالمية لا يخلو منها بيت ولا بلد في الدنيا يسكنه بشر. فهو تحد من الله للناس جميعاً، طبقاً لعالمية الرسالة، وتحديها عالمي. فهل استطاع أحد من أولئك الملحدين رغم وصولهم إلى علوم هي غاية في الدقة في الكيمياء والأحياء وسائر أنواع العلوم هل استطاع خلق ذبابة؟ بل إن الله تحداهم أنه لو وقع الذباب على طعامهم ثم لعقت ذبابة شيئاً منه أن يعيدوه كما هو من الذبابة.

وقد أثبت العلم الحديث أن الله تعالى جعل من خصائص أخذ الذبابة للطعام أنها فوراً تفرز عليه مادة مذيبة له ومحولة له تحويلاً كاملاً إلى شيء آخر؟ فما أعظم الخالق الذي يتحدى الإنسان أن يخلق ذبابة أو يعيد شيئاً سلبته الذبابة منه؟ لماذا؟ فإنه الخالق لكل شيء، والعليم بما أودع في الذبابة من خاصية التغذية.

ثم تعال بعد ذلك إلى ما هدى الله تعالى مخلوقاته له مما لا يمكن أن يكون ذاتياً منها؛ فهي غير عاقلة ولا عارفة، ولكنها مهتدية بهدي ربها الذي خلقها وهداها.

وتعال معي لنشهد عظمة الخالق في هدايته لمخلوقاته الدالة على أنه هو موجِدها وخالقها ومُبدعها وهاديها وأنه لا رب سواه. فمثلاً تحمل المرأة ولا خبرة لها بالإرضاع بل لم يكن في صدرها لبن، فلماذا؟ ومن الذي يجعل غُدد اللبن في المرأة الحامل تعمل في فترة الحمل في حين لا تعمل في غير الحامل،ولا تعمل في غير وقت الحمل؟ من الذي يهدي هذه الغدد لتنشط وتفرز اللبن؟.

الله الذي يحرك مواد في المبيضين للمرأة، «وفي نهاية الحمل وبدء الوضع تتلقى هذه الغدد اللبنية الأوامر من الغدد النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة لصناعة اللبن، وما أن يلد الطفل»[١] حتى يجد غذاءه ورزقه من لبن الأم، بل لا يكاد يولد إلا وتبدأ شفتاه تبحثان عن ثدي الأم ليرضع، وتبدأ شفتاه وعضلات فمه ولسانه وحركة عنقه وفكه من الأسفل، ونَفَسهُ من أنفه، وهو يمتص الحليب من ثدي أمه بعملية دقيقة ومتقنة مع أنه لا خبرة له سابقاً إطلاقاً بهذه العملية، ولا تدريب له على هذه المهارة قبل هذه اللحظة؟ فمن الذي هداه لهذا؟ إنه الله الهادي سبحانه.

وتعال معي إلى ثعابين الماء وأسماكه المهاجرة التي تقطع آلاف الأميال في البحار والمحيطات. فمثلاً هناك أسماك تهاجر من المحيطات إلى جنوب برمودا لتبيض بيوضها هناك وتموت بعدها. فما أن تفقس بيوض تلك الأسماك التي ماتت وليس لها أمهات تحملها أو تدلّها أو تدربها، تبدأ تلك الأسماك الوليدة الجديدة تعود إلى أوطان أمهاتها في البحار والمحيطات التي هاجرت أمهاتها منها، كلٌ إلى موطنه دون أن يغير نوع منها أوطانه[٢]، فمن الذي هذه هدى هذه الأسماك الوليدة إلى أوطان أمهاتها وأجناسها أو أنواعها؟

وإنه لم يحدث إطلاقاً أن ثعباناً واحداً منها أمريكياً غيّر موطنه إلى شواطئ أوروبية مثلاً. من الذي هداه لهذا؟ إنه الله الهادي سبحانه.

وتعال إلى الزنابير[٣] أو ما نسميه الدبابير فإنها تصطاد الجنادب، ولكل منها إبرة فيها سم، وحين يصطاد الزنبور فريسته من الجنادب ينخزه بالإبرة وبنسبة سم محددة بحيث يفقد الوعي، ويبقيه حياً مخدراً حتى لا يموت الجندب فيتعفن ولا يصلح لتغذيته، بل يخدره ويفقده الوعي ليبقى طعاماً طازجاً غير متعفن وغير مسمم سماً يضره ويضر صغاره إذا أكلوا منه، ويقوم بدفن فريسته المخدرة (الحية في مكان معين لتأتي إناث الزنبور فتضع بيوضها في ذلك المكان ثم تغطى هذه المكان وتلك الحفرة وترحل ثم تموت، فلما تفقس بيوضها تخرج الزنابير الوليدة لتجد طعامها محفوظاً لها وطازجاً. تتغذى عليه حتى تستطيع الحركة بعد أن تكبر. وانظر في هذه الطريقة وكم تكررت عبر ملايين السنين، فمن الذي هداها لهذا بحيث أصبح ديدنها؟ إنه الله تعالى الهادي.

وكتبت لنا قصص العلم أن عالماً أراد أن يستفرخ الدجاجة[٤]، من غير

---

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٧٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.
(٣) المرجع السابق.
(٤) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٧٧.

الحضانة الطبيعية للدجاج، وكل ما هنالك أوجد درجة الحرارة والبيئة الحرارية المناسبة المشابهة وصنع جهازاً للتفريخ، ولكنه فشل في ذلك. فنصحه مزارع من مزرعة دجاج أن يقلّب البيض لأنه رأى الدجاج يفعل ذلك فهو يقلب البيض تحته وهو يجلس عليه؟ فلما فعل العالم ذلك وجد البيض قد خرج منه فراخ؟ فلماذا يفعل الدجاج ذلك التقليب لأنه بالتعليل العلمي: إن الدجاجة تعرض كل أجزاء البيضة لدرجة حرارة واحدة بالتقليب مما يجعل الفرخ المتولد داخل البيضة إذا لم يقلب البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، ولذلك فإن الدجاجة تقلب البيض في أيام جلوسها عليه إلا في اليومين الأول والأخير؟ فمن أين للدجاجة هذه الدراية؟ ومن الذي أعطاها هدايتها منذ أن خلق الله الدجاجة الأولى إلى آخر الزمن. إنه الله تعالى الهادي القائل: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥].

الحكمة الدالة على عظمة

الخالق سبحانه

إذا نظرنا إلى المخلوقات وجدنا كل شيء موضوعاً في محله، وإذا نظرنا في كل ظاهرة وجدنا كل شيء منتظماً في وقته؛ وفي مكانه، وفي هيئته، وفي صورته بحيث لو تغير شيء عما هو عليه لفسد أمره ولم يقم بوظيفته، ولاختل نظامه. ويعبر عن هذا المعنى بالحكمة وهي وضع الشيء في محله، فمن الذي وضع الشيء في محله، وهو عالم بأمره وهو حكيم في صنعه؟ إنه لا يمكن أن يكون مخلوقاً؛ لأن المخلوق حادث وطارئ على الوجود وعلمه حادث، ومتغير فالمنزه عن الجهل وعن الحدوث هو الخالق العليم الحكيم سبحانه، وتعال معي نستعرض شيئاً يسيراً جداً بحيث لا يكاد يذكر في مظاهر هذه الحكمة الربانية في الخلق:

ترى من الذي جعل الخفافيش تطير في الليل المظلم، وبصرها أصلاً ضعيف، ولا تصطدم هذه الخفافيش بالجدران والحواجز مهما كان عددها وضخامتها؟

بعد الدراسة العلمية الدقيقة لهذه الظاهرة وجد أن الخفافيش ترسل اهتزازات هي أشبه بالأشعة التي ترتد على شكل الاهتزازات منعكسة عليها لتحول بينها وبين أن تصطدم بالجسم المقابل. ولقد كانت هذه المعرفة في هذه الظاهرة لدى الخفافيش بداية للعلماء لصناعة الرادار[١].

وانظر هذه الحكمة في عظام الطيور المختلفة عن عظام سائر الحيوانات؛ حيث وجدنا بالتشريح أن عظام الطيور رقيقة مجوفة خلافاً للحيوانات الأخرى، وما ذلك إلا ليجعل الطيور أخف وزناً بالنسبة لحجمه من الحيوانات حتى يمكنها من الطيران.

وهناك نوع من الطيور تسمى البانجو تعيش في القطب الجنوبي، تبيض هذه الطيور في الشتاء البارد جداً والمظلم جداً، وتضع بيوضها بعيداً عن التلف في الثلج حتى تشتد قوة الصغار ويستطيعوا الطيران.

وانظر إلى الأسماك في البحر وهي تتجنب الحواجز أو الأجسام المادية،

---

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٩٨.

فكيف تعرف الأسماك الخطر المحدق بها لتتجنبه؟ ثبت علمياً من خلال الفحوص المختبرية أنه يوجد أعضاء دقيقة حساسة جداً موجودة على الخطوط الطولية الموجودة على جانبي السمك، وهذه الأعضاء تعطي السمك إحساساً باختلاف ضغط الماء إذا اصطدم بحاجز رغم تماوج الماء، وبالتالي تغير الأسماك مسارها لتتجنب الخطر.

وانظر حكمة الله تعالى في ظاهرة الحياة تقابلها ظاهرة الموت والحكمة في ذلك، يقال لو أن ذبابتين توالدتا واستمرا أولادهما بالتوالد وهكذا دون أن يتعرض الذباب لظاهرة الموت، فإنه بعد خمس سنوات فقط تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها خمس سنتمترات[1]. فكيف إذا ما ترك هذا الذباب بدون موت ألوف السنوات فماذا يمكن أن تشكل هذه الظاهرة لتوالد الذباب وحياته للكرة الأرضية ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك: ١ - ٤].

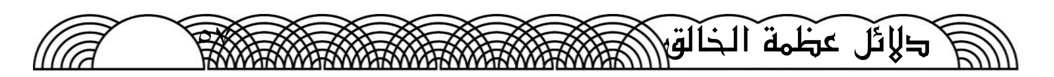
ترى هذه الفضلات الخارجة من الإنسان ومن الحيوانات ومن المتعفنات والقاذورات والمهملات التي يُلقى به في البيئة فكم هي خطورتها لو تراكمت في البيئة! فمن الذي يخلّص البيئة منها؟ إنها مخلوقات أخرى من البكتيريا والتي تحولها إلى أشياء أخرى فتذيبها وتبددها وتحولها إلى أشياء مفيدة في البيئة، وتنهي أزمة تراكمها وإعاقتها، وتصبح في كثير منها أشياء نافعة وأسمدة مفيدة.

وانظر إلى خلقة هذا الإنسان وفيها مالا يحصى من الحكم. ترى لو أن عينيْ الإنسان وضعتا في غير محلهما فكيف لهذا الإنسان أن يعيش؟ وانظر إلى المجال البصري للإنسان للأمام والحكمة من جعل الأذنين في موضعهما، ومجال السمع من جميع الاتجاهات للإنسان؟

وانظر إلى الحكمة من خلق الكليتين، فإن في كل كلية مالا يزيد عن ٣ سنتمترات هي المسؤولة عن وظيفة الكلى في تنقية الدم، وعشر هذه المنطقة

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٩٢.

كافٍ لحياة الإنسان، والله تعالى أعطى هذا الإنسان كليتين (٦ سم) منهما تقومان بالوظيفة، ولو أصيبت معظم هاتين الكليتين بالتلف وبقي قليل جداً منهما لكفى، وانظر الحكمة في شخص يفقد إحدى كليتيه فيعوضه الله تعالى في الكلية الثانية فتكبر وتتضاعف المنطقة المسؤولة عن الوظيفة. وانظر كم تصبح حياة الإنسان صعبة وكم يحتاج الطب إلى أجهزة وعدد من المرات أسبوعياً من غسيل الكلى فيما لو تعطلت هذه القطعة الصغيرة جداً من الكلية التي تقوم بهذه الوظيفة. وانظر إلى أنه لا يمكن أن يعوض جزء آخر من الجسم هذا الكلية لو تلفت. فسبحان الخالق القائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].



العدالة في توزيع المخلوقات على الأرض

دليل على وجود الخالق وعظمته

خلق الله تعالى المخلوقات: حيواناتها ونباتاتها وجعل بينها من العلاقات ما يجعلها متوازنة؛ منها ما هو صديق للآخر، ومنها ما هو عدو للآخر. وعلى كل الأحوال علاقاتها بقدر، ذات فائدة للإنسان الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض.

وهناك نماذج من هذه العدالة الدالة على قدرة الله ودقة خلقه سبحانه:

تكاثرت الصقور في إحدى الولايات، واشتكى أهل الولاية من اعتداءات هذه الصقور على مزارع الدجاج عندهم، وألح المزارعون على حكومتهم بضرورة حل المشكلة، وقتل الصقور لأنها سببت لهم خسائر كثيرة، وأخيراً تحت وطأة الإلحاح من الجمهور قررت الحكومة مساعدة المزارعين بالقضاء على الصقور وجندوا كثيراً من الشباب، ودفعوا مكافآت مالية مجزية لكل من يقتل صقراً، ونجحت معركتهم في قتل عدد كبير جداً من الصقور واستراح المزارعون مؤقتاً بتأمين دجاجهم. ولكن ما إن مرت برهة إلا وجد المزارعون مشكلة جديدة تواجههم، فهاجمتهم أعداد كبيرة من الفئران لتقضي على حقولهم وزراعاتهم وحبوبهم، واكتشفوا أن ما فعلوه من حرمهم للصقور وقضائهم عليها كان سبباً كبيراً في كثرة الفئران؛ لأن تلك الصقور كانت تتغذى على الفئران، وأن القضاء عليها كان فرصة لسلامة الفئران وكثرتها وتكاثرها.

فندم أهل الولاية ومن أين لهم أن يستشعروا عدد الفئران؟ فكان الأولى لهم أن يحتاطوا لسلامة دجاجهم ويتركوا التوازن والتعادل الذي خلقه الله تعالى بين المخلوقات دون أن يتدخلوا فيه، وما ذلك التوازن إلا قدراً من أقدار الله، ينشيء التوازن بين المخلوقات فيما فيه مصلحة الإنسان.

وهذا درس للإنسان الذي يتدخل في التوازن الطبيعي الذي خلقه الله تعالى، فإن فيه تدميراً لحياته. وليترك الأمر لحكمة الله عز وجل. وانظر إلى خطورة خرق طبقة الأوزون الذي تسببه الغازات المنبعثة من الصناعات بكافة أنواعها، وانظر إلى السموم النووية التي ترمى في البحار، وفي صحاري البلاد الفقيرة ما يهدد البيئة والسلة البحرية لغذاء الإنسان من الأسماك والحيتان. وحينما نسمع عن هذا الاعتداء الإنساني على التوازن فيما خلق الله تعالى نذكر

حديث الرسول ﷺ كيف أن الطيور في السماء والحيتان في البحر تستغفر لمن يعلمون الناس الخير لأن العلماء إذا علموا الناس الخير؛ حافظوا الناس على البيئة ولم يقتلوا الأسماك والطيور، ولم يسمموا الأجواء. وانظر ما يتحدث العالم اليوم عنه من التغيرات المخيفة في المناخ.

ويروي صاحب كتاب «سبعون برهاناً علمياً» قصة في دلالة دقة عدل الله على وجود الذات الإلهية[1] في توزيع المخلوقات على الأرض، - والبراهين طبعاً أكثر من ذلك وهي لا تعد ولا تحصى لكثرتها - أن إحدى المناطق في أمريكا يعيش فيها الأيل، وهو نوع من الغزلان، وأن طعام هذا النوع من الغزلان الرئيسي الورد البري. وأنه يعيش في هذه المنطقة عدو هذه الأيائل أسود الجبل فهي طعامه المفضل، وهذه المخلوقات النباتية الورد البري والأيائل والأسود تعيش في حالة توازن. وقررت حكومة تلك المنطقة القضاء على أسود الجبل من أجل حماية هذا النوع من الغزلان، ولما نفذت خطتها وجدت مشكلة بيئية خطيرة جداً، فلم يعد الورد البري يكفي طعاماً للغزلان وأخذت تتجاوز وتعتدي على سائر شجيرات المنطقة وأشجارها الصغيرة، ولم تكفها، وماتت الألوف منها وبهذا فقد اعتدى الإنسان على توازن مفردات البيئة فأضر بالبيئة وبنفسه، فسبحان الخالق القائل

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ولقد استحدثت الجامعات تخصصاً جديداً وشجعته في مجال الحشرات حيث وجد أن استعمال المبيدات الحشرية الكيماوية قد أضر بالبيئة إذ أصبح لدى الحشرات المهاجمة مقاومة للمبيدات الكيماوية، وقد قضت هذه المبيدات على حشرات كانت هي التي تهاجم آفات زراعية فتتغذى عليها وتنظف البيئة منها. فسبحان من خلق هذا التوازن وجعل عدو كلٍّ من نوعه.

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ١ - ٧].

---

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً ص ٢٠٦ – ٢٠٧ بتصرف.



النوم آية دالة على عظمة الخالق

تعالَ معي إلى هذه الآية من آيات عظمة الخالق التي لا يعلم سرّها كاملاً إلا خالقها، وهي نعمة من نعم الله على هذا الإنسان وعلى غيره من المخلوقات من الحيوانات. إنها آية النوم. مَنْ مِنَا يستطيع الاستغناء عنه؟ مَن مِنّا من لا يجد نفسه مضطراً إليه وباحثاً عنه، بل ومستسلماً له شاء أم أبى.؟ إنه جزء من أعمارنا التي نغيب فيها عن الوعي عن الدنيا وعن العمل وعن النشاط، ولكنه مطلوب محبوب مرغوب فيه. من يصاب بمرض يقلقه أو توتر يزعجه، أو عمل يسلب النون منه، يجد نفسه مكروباً مضطرباً يتوجه إلى أبواب الأطباء والعيادات النفسية يبحث عن النوم وأدويته. لماذا كل هذا القلق؟ لأنها الحاجة الماسة إلى النوم.

تروي لنا كتب العلم ومنها كتاب ثقافة طبية كما نقل عنها صاحب كتاب سبعون برهاناً[1] أن طبيباً نفسياً يعمل في معهد أبحاث قام بتجربة على خمسة وعشرين رجلاً، تطوعوا بأن يبقوا مستيقظين ساعات طويلة بلغت مائة ساعة أي أربعة أيام تقريباً دون نوم مهما غالبهم النوم، وأشغلهم بأعمال تقع في إطار اهتماماتهم، وانتهت التجربة إلى أن هؤلاء الرجال استطاعوا أن يصمدوا بوضع صحي ونفسي مدة يومين فقط، ويبدو أن هذه المدة مناسبة في الصمود عموماً للإنسان الذي يواصل استيقاظه مع وجود ما يشغله. لكن بعد انقضاء اليومين بدأت المتاعب تظهر عليهم، فأصبحوا يعانون من قلة التركيز في الانتباه، وتعرضوا لتهيج وتوتر، وسرعة انفعال، وأخذ بعضهم يرى صور الأشياء مزدوجة وأخذوا يعانون من هلوسة، وبعضهم يقول أنه يسمع أصواتاً حتى إن أحدهم أخذ يخيل إليه أن أمه الميتة تناديه، وأن كلماتها واضحة بحيث أخذ يلتفت باحثاً عنها وعن مصدر الصوت، بينما خيل لآخر أن الأثاث من حوله يتحرك.

وخيل لثالث أن كلباً يسير في المستشفى...وهكذا بدأت عقولهم بالانهيار، ولم يعودوا يحتملون، وما كان لهم من دواء إطلاقاً إلا الاستغراق في النوم حتى تعود لهم صحتهم النفسية وأوضاعهم الطبيعية.

فسبحان من أسدى هذه النعمة لعباده والقائل في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

---

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ١٢٨ ــ ١٢٩.

يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] والقائل ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النبأ: ٩]، فالسبات هو النوم والراحة، فالإنسان محتاج إلى هذه الراحة. ولكن ما الذي يستريح في هذا الإنسان، وما هي هذه الراحة؟ النوم يريح الجسم والعقل وكل حواس. الإنسان من الجهد الذي نقوم به في حالة اليقظة.

ومعلوم أن الدماغ فيه المخ والمخيخ، وتنتهي إليه كل ما تدرك الحواس وما تصل إليه جميع أجزاء الجسم من إحساسات عبر الأعصاب، وهو المسؤول عن الإدراك وعن الأوامر التي يعطيها لكل أنسجة هذا الجسم وأعضائه وأجهزته، ولكن بالنوم تحصل راحة تنعكس على راحة الجسم أيضاً فينكمش بؤبؤ العين، وتخمل أعمال الحواس، وتقل سرعة نبضات القلب، ويهبط ضغط الدم بشدة بعد الإغفاء مباشرة، ثم يعود ضغط الدم مرة أخرى للارتفاع بعد تمدد الأوعية الدموية السطحية، ويُبطيءٍ النَفَس عن معدله المعتاد.

وبالتالي يقف العقل عن التفكر، وتقف الحواس عن العمل، وأكثر حاستين تتعرضان للإجهاد السمع والبصر، وتتشل حركة الجسم كلياً إلا في لحظات بسيطة في التقلب في النوم. ويستمر التنفس المسؤول عن حياة الإنسان والدال على أنه ما زال حياً. وهذا هو النفس الأوتوماتيكي غير الإرادي الذي لولاه يموت الإنسان. شاهدت ممرضات في أحد المستشفيات مشغولات بطفل، ما أن تحمله إحداهن ساعات محدودة حتى تسلمه لأخرى على مدى أربع وعشرين ساعة وهكذا، فسألت عن مرض هذا الطفل حتى أخبرت أن هذا الطفل قد ولد وليس لديه جهاز النفس غير الإرادي الذي يسمح له بالنفس وهو نائم. وأن هذا الطفل إذا نام مات فوراً، وأنه لا بد من حمله ومنعه من النوم حتى يبقى نفسه جارياً بوعيه وحتى لا يفقد التنفس فيموت، فكانت هذه الحالة الغريبة التي شاهدتها دليلاً على نعمة الخالق علينا بأنه يجري أنفاسنا ونحن نائمون فلا نموت إلا بقدره.

ويبدو أن أثر الروح يتوقف مؤقتاً وأهم آثارها الفكر، العقل، والحياة التي تقابل الموت. ولهذا فإن النوم هو شبيه بالموت من حيث مفارقة الروح المسؤولة عن التفكير، وهو آية دالة على الموت والاستيقاظ آية دالة على البعث.

ومن هنا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ

يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾
[الأنعام: ٦٠] .

ومن هنا فقد علمنا رسولنا ﷺ أن نتذكر هذا ونستشعر عظمة الله والإيمان به عند النوم وفي لحظة اليقظة بعده، فحين ننام من السنة أن يدعو العبد بقوله: «باسمك ربي أضع جنبي وبك أرفعه. اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وعند الاستيقاظ من النوم يدعو فيقول «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»، و«الحمد لله الذي رد علي روحي وجعلني من المسلمين».

السير في الأرض آية دالة على عظمة الخالق سبحانه

هذه الأرض التي نعيش عليها، وتستقر حركتنا فيها، وفيها كل متطلبات حياتنا، أليس هذا كله من صنع خالق أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. ومما يلفت القرآن نظرنا إليه في هذه الأرض قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وذلك في جميع الآيات التي تطلب منا العظة والاعتبار، [انظرها في مواضعها الأربع عشرة في القرآن الكريم]. وحتى في البر والبحر، ويستعمل الأداة الظرفية **(في)** ولم يقل في واحدة من الآيات سيروا على الأرض، وإنما سيروا **(في)** الأرض.

مع أننا نسير على سطحها ويكتشف العلم بعد ذلك أننا فعلاً نسير في الأرض ولا نسير عليها[١]، لأن الأرض علمياً هي كرة أرضية ولها غلاف جوي ونحن بسيرنا براً وبحراً سواء على أقدامنا أو مركباتنا أو طائراتنا أو سفننا، إنما نتحرك داخل الغلاف الجوي للأرض، أما المركبات الفضائية فإنها لا تسير في الأرض وإنما تخرج من الغلاف الجوي، وهي تنفذ من أقطار الأرض وغلافه إلى خارجه، ولذلك نسير بعد ذلك فينظر أصحابها إلى الأرض من على الأرض. فمن الذي وصف سيرنا في الأرض وليس على الأرض، إنه خالقنا الذي خلق الأرض وقدر لنا أن نسير فيها لا عليها فهو العليم بنا وبها.

ثم تعال إلى هذه الآية الأخرى وهي آية قرآنية تصف امتداد حقيقة الأرض وآية علمية تحقق معنى هذا الوصف بالامتداد قبل أن يصل العلم إلى كروية الأرض؛ يقول الحق سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ١٩- ٢٢].

---

(١) الشعراوي، الأدلة المادية، ص (٩٣ – ٩٤).

يبين الحق سبحانه ويلفت أنظارنا إلى أننا إذا نظرنا إلى الأرض وجدناها مبسوطة أمامنا، أي ممتدة منبسطة، وهذا الأمر بسيط وسهل وفي حد ذاته لا يحتاج كثيراً إلى تنبيه، فلم هذا اللفت للنظر في القرآن إلى أن الأرض ممتدة؟ أثمة أمر خفي في معنى هذا الامتداد في شكله الظاهر فيه وحقيقته المرئية البسيطة الظاهرة للعيان وما الحكمة في هذا الامتداد بهذا المفهوم؟

الجواب: أن تسهيل الأرض وانبساطها تساعد على الحركة عليها. ولكنها هنا هي الأرض وليس السطح أو التربة أو الساحة. وهذه الأرض التي حدثنا على أننا نسير فيها وحينما نمشي نجدها مبسوطة ممتدة.

ولكن هذا الامتداد ليس هو الشكل الظاهر لشكل الأرض، إذ أثبت العلم أن الأرض كروية، ولذلك يأتي امتداد الأرض من كرويتها، إذ لو كانت الأرض على غير شكل الدائرة أي لو كانت مثلثاً أو مربعاً أو على شكل هندسي آخر لكانت لها حواف، وكيف للإنسان أن ينتقل عند الحواف إذ لا تعود الأرض ممتدة منبسطة؟ إذن كروية الأرض هي وحدها الشكل الذي يسمح بالامتداد، فسبحان من خلق وعلّم، وبهذا فإن من جهل معنى كلمة الامتداد وظن أن الأرض منبسطة وحارب العلم في قوله بكرويتها قد وقع في فهم خطأ للآية، بل الآية امتداد الأرض هي الدالة على كرويتها قبل أن يصل العلم إلى ذلك.

ثم تعال معي إلى هذا الماء من السماء النازل على هذه الأرض التي قدره الله بقدر، من أجل أرزاقنا، فيها وأرسل الرياح تنقل حبوب اللقاح هذا عبر الهواء من مسافات بعيدة إلى مياسم الشجر حتى تلقحها، فتثمر، ثم هذا الماء الذي تختلط به مواد التربة من أسمدة وعناصر غذائية فتتحرك جذورها إلى أعضائها بظاهرة الضغط الأسموزي أي في الأنابيب الشعرية. ويكون الحقل واحداً فمن الذي يهدي هذه الأنابيب لتأخذ أنواعاً من الأغذية دون غيرها. فهنا تكون الأغذية ثمرة برتقال وإلى جانبها ثمرة ليمون، وإلى جانبها ثمرة دراق وإلى غير ذلك من الثمار؟ إنه الخالق سبحانه هو الذي ينوّع هذه الثمار وتلك الأشجار، والعوامل واحدة والأغذية واحدة، والتربة واحدة فاسمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

فهلا قلنا سبحان الله الخالق العظيم

آية خلق الإنسان من طين

هل تعلم أن هذا الإنسان بدمه ولحمه وعظمه وعصبه ودماغه إنما هو مجموع عناصر هذا التراب الذي خلقه الله تعالى؟ فهو من عالم الشهادة المنتمي إلى الكون المخلوق له، ومن عالم الغيب الذي روحه منه. أما الروح فهي غيب لا يصل العلم إلى معرفة حقيقتها وإنما يرى آثارها في الكائن الإنساني من خلال حياته ووعيه وعقله، ويرى أثر فقدانها بموت الإنسان.

يذكر العلماء بعد دراسات معمقة أن جسم الإنسان يتكون من: «تسعة عشر عنصراً من عناصر الكون هي موجودة في التراب أو الطين. ويقول أحدهم: إننا لو جمعنا في وعاء واحد (تسعة وثلاثين) كيلو غراماً من الأوكسجين، ومائة وثمانية (١٠٨) كيلو غراماً من الكربون، و(٦) كيلو غراماً من الهيدروجين و(١.٨)كيلو غرام من الآزوت، و (١.٢) كيلو غرام من الكالسيوم، و٠.٦٦ كيلو غراماً من الفسفور + ٠.٢١ كيلو غرام من الكبريت، + ٠.٩ كيلو غرام من الكلور مع مقادير أخرى من المغنيسيوم والحديد والمنغنيز والصوديوم والبوتاسيوم والنحاس واليود والكوبالت»[1] والزنك والذهب والفضة والسيلكون. وأراد الله تعالى لها الحياة ستشكل إنساناً زنته (٦٠) كلغم وأن هذه العناصر قد توجد فينا منفردة إلا بمقادير ضئيلة جداً، ومع ذلك فهي تتحد بعضها من بعض مكونة جزيئات متنوعة في أوزانها وخواصها الأخرى فالماء نسبته فينا يشكل ٦٥% من وزن الجسم، وما تبقى من الجسم مؤلف من بقية العناصر العضوية وغير العضوية. فتخيل كيف تبدأ خلقة هذا الإنسان من هذه العناصر من الطين في أول حيوان منوي وهو ماء في تلقيحه لبويضة المرأة.

وهذا الماء أو النطفة فيها كل هذه العناصر وكم تكون هذه النطفة في صغرها ليصبح وزنها بعد نمو عناصرها في سن الشباب بليون مرة تقريباً من وزنها في حالة البويضة المخصبة[2]، فمن أين جاءت هذه العناصر؟ ومن الذي خلق التراب؟ ومن الذي خلق الإنسان من هذه النطفة؟ ومن الذي أودع فيها حكمته لتنمو بالمقادير المناسبة لتصبح إنساناً بعد أن يُلقى فيه روحه. إنه الله

---

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً، ص ٣٣١.
(٢) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً، ص ٣٣٢.

سبحانه وتعالى. وقد أعطانا الخالق سبحانه في كتابه قبل أن يصل العلم إلى دراسة جسم الإنسان ومعرفة عناصره، أنه بدأ الخلق الإنسان من طين، ومن تراب ومن صلصال من حمأ مسنون، ومن ماء مهين، ومن نطفة إلى غير ذلك من التعبيرات في القرآن الكريم، واسمع قول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل وهو يلفت أنظارنا إلى عظمة خلقه في هذا الإنسان من طين حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٢٨ - ٢٩].

فالخلق يحتاج إلى تسوية، أي معادلة بين العناصر. وترتيب دقيق محكم قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[الأعلى: ١ - ٢]. ويقول سبحانه:

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾[الكهف: ٣٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[السجدة: ٧]، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[المرسلات: ٢٠]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[النور: ٤٥]، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] والسلالة هي خلاصة لأنها تسل من بين الكدر(١) أي من خلاصة تولدت حتى صارت منياً، أما تولد هذه الخلاصة فهو من الأغذية. والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات يتولد من صفو الأرض والماء

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير. ط١، طبعه عبد الرحمن محمد، القاهرة ٨٤/٣.

والعناصر المكونة للطين، فالسلالة إذن هذه الخلاصة من المتولدة من الطين، فآدم من طين، وذريته من خلاصة الطين، وهي المقصود بقوله من ماء لأن الماء هي الوسط المذاب فيه هذه العناصر المكونة للطين[1].

يرى الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره للآيات: «أن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر وأما نحن فأنا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء. وهو النبات. لكن النبات من التراب وينضم إليه أجزاء مائية ليصير بحيث يغذو». فسبحان الخالق القائل في محكم التنزيل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والقائل: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

(١) انظر ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً علمياً، ص ٣٣٥. وانظر بالتفصيل الرازي، التفسير ٨٤/٢٣.



أطوار خلق الإنسان آيات دالة على الخالق

العلقة والقرار المكين

يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

تحدثنا فيما مضى عن خلق الإنسان من طين أصلاً في خلقة آدم، ثم انسلت العناصر الطينية مكونة خلاصة ما في التراب من عناصر مذابة في الماء لتصبح جزءاً من خلقة الإنسان بعد آدم لتكون المني والبويضة، وكلاهما خلايا إنسانية جنسية فيهما عناصر الطين أو خلاصته المنسلة من عناصره.

وتحدثنا الآيات هنا عن أطوار نشأة الجنين وخلقته في بطن أمه عبر مراحل دقيقة لم يصل العلم إليها رغم نظرياته وافتراضاته وأخطائه إلا بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، فتأتي المختبرات عبر التحليلات وأجهزة الأشعة الإلكترونية لتدلي بدلوها، ويظن العلماء أنهم وصلوا إلى فتوحات جديدة ورائعة في دراسات علم الأجنة البشرية، ويفجعون ويُسقط في أيديهم حين يستمعون لآيات القرآن في ما وصلوا إليه قبل هذه القرون الطويلة، ولم يكن وقت نزوله شيء من علم الأجنة ولم يكن محمد ﷺ يعرف من علوم البشر يومها، ولا علوم زمانه تعرف شيئاً من هذا الوصف الدقيق لأطوار خلق الجنين في بطن أمه، مما يؤكد أن الذي يصف بدقة هذه الأطوار ليس إلا خالقها سبحانه، وهو الذي لفت أنظار البشر إلى عظمة خلقه للجنين دليلاً على وجوده وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته، وبما يثبت صدق نبوته رسوله ﷺ.

وتعال معي نقرأ ما توصل إليه علم الأجنة حيث يقول إذا ما حصل الإمناء من الرجل، وتكون البويضة مهيأة لاستقبال الحيوان المنوي، أما الحيوان المنوي ما هو؟ فهو خلايا جنسية للرجل خيطي الشكل من جهة الذيل ومُفلطح من جهة الرأس، يحمل كل الصفات الوراثية - الشيفرة الوراثية للعائلة- وهو صغير جداً لا يمكن رؤيته إلا بالمجهر، وهو واحد من ملايين الحيوانات التي يقذفها الرجل عند الجماع.

أما البويضة فهي الخلايا الجنسية للمرأة، تفرزها المرأة من إحدى

المبيضين الأيمن أو الأيسر، وهي تفرز في الشهر مرة واحدة قبل أربعة عشر يوماً من الحيض. تستعد لاستقبال الحيوان المنوي للتلقيح، وإذا لم يحصل لها التلقيح فإنها تتعرض للتلف وتنتهي إلى حالة حيض.

هذه البويضة ذات شكل كروي وحجمها أكبر من حجم الحيوان المنوي ب (٨٥.٠٠٠) بخمس وثمانين ألف مرة، وتحمل الصفات الوراثية للأم، وتستقر في حفرة في بوق الرحم، فإذا ما حصل الجماع تندفع ملايين الحيوانات المنوية إلى البوق، وأسرع هذه الحيوانات وأنشطها هو الذي يصل إليها وتجذبه فيثقبها بذيله، ثم يمر في طبقة المواد الغذائية ثم يتحد مع نواة الخلية الأنثى وهذا هو التلقيح. ومن ساعتها يخصص الجنين بالذكورة أو الأنوثة، بعد أن يطرح الحيوان المنوي كروموزماً واحد من أصل ثلاثة وعشرين كرموزوماً، وتفعل البويضة كذلك فتطرح كروموزوماً واحداً من أصل ثلاثة وعشرين كرموزوماً وهذان الكروموزومونان يشكلان خليطاً أو مشاجاً يحصل عليه من الأبوين ليشكل هذا المشاج الخلقة الإنسانية، وفيها العوامل الوراثية الكاملة من الأبوين(١).

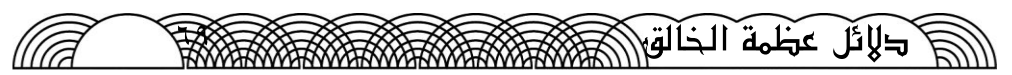
بعد عملية الاتحاد يبدأ الانقسام من الخلية المخصبة إلى خليتين، ثم إلى أربع خلايا، ثم إلى ثمانٍ ثم إلى ست عشرة، إلى اثنتين وثلاثين وهكذا حتى يتشكل شكل مثل حبة التوت الأحمر، فتنغرس في الجلد المخاطي الوظيفي للرحم. ثم تتحول إلى علقة أي مثل الخيوط من الدم المتجمد، والعرب تعرف العلقة التي تعيش في الماء وتمتص دم الإنسان إذا وقفت في حلقِهِ وأُنشبت، وهكذا تعلق هذه العلقة المتخلقة في جدار الرحم(٢). والغريب أن العلم وصل إلى تشبيهها بالعلقة قبل أن يقرأ العلماء الغربيون القرآن.

وذكر العلم كذلك أنه يتكون غشاء يحيط بها تماماً يسمى الكيس الأمينوني، ويفرز هذا الكيس ابتداءً ماءً شفافاً يتحول لونه نحو الرمادي الأبيض، ثم الرمادي الأصفر وقاية للجنين من الصدمات وليسبح فيه آمناً، وهذا هو القرار المكين، الذي حدثنا القرآن عنه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣].

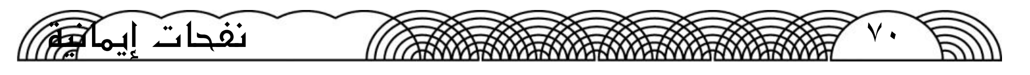
---

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً، ص ٣٣٩ بتصرف وقد نقل تفاصيل دقيقة في وصف تلقيح الحيوان المنوي للبويضة.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٠ بتصرف، ويمكن مراجعة التفاصيل الدقيقة فيما نقله المؤلف عن الكتب العلمية التي تصف انقسامات الخلية المخصبة حتى تصل إلى مرحلة العلقة.



وقد ذكر العلماء أن هذه المرحلة التي يقضيها الجنين من المبيض بعد التلقيح إلى الرحم بين ثلاثة إلى خمسة أيام. وينتهي الأسبوع الأول إلى حالة تبدأ فيها مرحلة المضغة.



من أطوار خلق الإنسان الدالة على عظمة الخالق

من المضغة إلى الولادة

مرة أخرى مع قول الخالق سبحانه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٣].

وهذا وصف الخالق الذي خلق أطوار الجنين، آيات دالة على عظمة خلقه ودقة صنعه، وعلى حكمته. وكيف يقرر علم الأجنة في أرقى مستوياته العلمية بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن هذه الحقائق التي لا يمكن أن يصفها في وقت نزول القرآن إلا خالق هذا الإنسان، سبحانه وتعالى الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. وقد نقل ابن خليفة عليوى تفاصيل هذا التطور والنمو للجنين من المضغة إلى الولادة، مختصره ما يأتي(١).

بعد خمسة أيام تقريباً تكون قد تحولت تلك النطفة إلى علقة وفي قرار مكين، وبدأ يتغذى الجنين من داخل الكيس الذي تشكل حول العلقة ليحمي الجنين، وليعطيه فرصة النمو الآمن والسباحة داخل هذا الكيس والتغذي على محتوياته. حتى تأخذ شكل المضغة أي مثل قطعة اللحم التي يظهر فيها مضغُ الأسنان.

وبعد ستة أيام: تتحول هذه المضغة إلى كتلة من الخلايا الصغيرة المندسة في غشاء الرحم السميك المُبطن الذي يوجد فيه تمدد كثيرة وأوعية دقيقة.

وفي اليوم التاسع: تتلاشى الطبقة الخارجية الواقية ويحل مكانها نمو من جميع الأطراف على شكل أهداف صغيرة كالأصابع التي تقوم بعملية إلصاق المضغة بالغشاء المبطن للرحم، وهي بداية تكوين المشيمة، أو الخلاص التي تحيط بالجنين، وتحفظه، وترتبط مع الجنين بالحبل السري الذي يحتوي على شريانين ووريد من أجل ربط الدورة الدموية للوريد بالدورة الدموية للأم.

وفي الأسبوع الثالث: تظهر الخلايا المكونة للجنين بحيث يمكن رؤية حجم

---

(١) المرجع السابق مختصراً ص ٣٤٠ ـ ٣٤٥.

الجنين بالعين المجردة، وهي بداية تكوين الأعضاء وخصوصاً المنطقة العلوية منه التي تكون الرأس والمخ، ونموها يكون بسرعة فائقة.

وفي الأسبوع الرابع: ينمو جميع جسم الجنين بسرعة فيصل في آخره إلى ما يقدر ببوصة أي سنتمتران ونصف وهذا الأسبوع هام جداً، حيث تتكون جميع الأعضاء والأجهزة الداخلية للجنين مثل: الجهاز العصبي والقلب والكبد والمخ والرئتين، ويبدأ خفقان القلب بشكل هادي غير مسموع.

أما بعد الأسبوع الخامس: فيتقوس الجنين كأنه نصف دائرة صغيرة ليتكون عنده العمود الفقري وبداية تكوين الأيدي والأرجل، ويستمر رأس الجنين في النمو أسرع من غيره من أجل نمو خلايا المخ والمخيخ حتى إلى ما بعد الولادة.

أما في الأسبوع السادس: فيزداد نمو الجنين ليصبح كامل التكوين وينفتح بطنه لسرعة نمو الجهاز الهضمي عنده، ليستقبل الأسبوع السابع الذي يصبح فيه وجهه واضح الملامح وتتكون أذناه وجفونه، ويأتي الأسبوع الثامن ليستكمل نموه لتظهر أصابع أطرافه، ويظهر طوله ليصل إلى سبع سنتمترات تقريباً، ووزنه إلى أربعة عشر غراماً. وهكذا حتى يصل الحمل إلى نهاية الشهر الرابع فيكون قد ظهرت أظافر يديه ورجليه، ويظهر رأسه مستقيماً وعليه شعر، وتتكون الأسنان داخل لثته عميقاً، وتظهر أعضاء التناسل بشكل واضح، ويصل طوله في هذا الشهر إلى خمس بوصات إلى اثني عشر سنتمتراً ونصف (١٢.٥ سم)، ووزنه إلى مائة وعشرين غرام (١٢٠ غم). وتبدأ عضلاته بالحركة البطيئة وتشعر الأم في نهاية الشهر الرابع هذا بحركة الجنين.

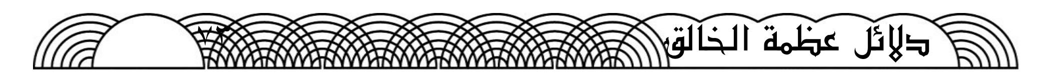
وفي الشهر الخامس: وبين الأسبوع السابع عشر والحادي والعشرين من حياة الجنين يستطيع الطبيب سماع دقات نبضه بالسماعة الطبية، ويزداد نموه ليصل إلى عشرين سنتمتر (٢٠ سم) ووزنه إلى ثلاثمائة وخمسين غرام (٣٥٠ غم) وهكذا يستمر نمو الجنين في الشهر السادس وبقية أشهر الحمل ليظهر جلده، ويتكون الشحم في جسمه، ويمتلئ الجسم، ويبدأ بالوكز لأمه بيديه ورجليه، وينام تارة على جنبه الأيمن وتارة أخرى على جنبه الأيسر، ورأسه إلى أعلى وإلى أسفل، حتى يصل الشهر السابع ليأخذ وضعاً واحداً حتى الاستعداد للنزول أو الولادة .

وما أن تحين لحظة نزوله إلى الدنيا خارج الرحم حتى يبذل كل قوته ونشاطه ليقلب غالباً ليدفع برأسه وما أوتي من قوة للخروج، ثم يخرج من كتفه الأيمن أولاً، فجلت قدرة الخالق الذي يحب التيامن في كل شيء ثم ما أن ينزل

حتى يصرخ من أجل تشغيل رئتيه لأن حياته الآن بحاجة إلى أوكسجين من الخارج، حتى يعمل قلبه بانتظام وتتفتح شرايينه ويبدأ رحلة الحياة.

إن بعض علماء الوراثة الذين اكتشفوا بعد طول تعب وعناء في البحث ليصلوا إلى هذه الحقائق، حين علموا أن القرآن لفت أنظارنا إلى مراحل الجنين بدقة تفوق علومهم آمنوا بالقرآن وبالإسلام[1] ومنهم العالم التايلندي الذي كان أكبر علماء العالم في التشريح في عصره.

(١) انظر الشعراوي، الأدلة المادية، ص ١٧٠ ــ ١٠٨.



أعصاب الجلد دالة على عظمة الله

يقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦] ويقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧- ٤٨].

ويقول الحق سبحانه﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤- ٧٥].

جاءت الآيات تهدد الكفار المجرمين بعذاب الله تعالى والخلود في النار، مصيبةٌ ما بعدها مصيبة، فلو كان الأمر ينتهي باحتراق أهلها لانتهى الأمر بالنسبة للكفار، ولكن الخلود مع تجدد العذاب بعد الاحتراق إذ يحيي الله عز وجل جسم الإنسان الكافر ليحرقه مرة أخرى.

ويُهان المجرمون بالإلقاء بهم على وجوههم في النار، وهو منتهى الإهانة بالسحب على الوجوه وفي النار، واحتراق الجلد وبخاصة جلد الوجه نسأل الله العافية. ولكن كيف لنا أن نتصور وأن نعرف والقرآن يُقرأ إلى قيام الساعة وباختلاف مستويات الناس وعلومهم. وكلما زاد علم الإنسان بحقائق العلم في خلقة الإنسان ومعرفة تشريح أعضائه، زادت معرفتهم بعمق المأساة، وبعظمة الخالق الذي خلق الإنسان ووصف عذابه، فقد توصل العلماء إلى حقيقة علمية تتعلق بجسم الإنسان إذ وجدوا أن الأعصاب هي التي تنقل الإحساس إلى الدماغ ليشعر الإنسان بالحر والبرد والألم، ووجدوا أن الأعصاب التي تنقل هذا الإحساس موجودة تحت الجلد[1]، وبالتالي فإن ما يتعرض له الجلد تنقله هذه الأعصاب. ولذلك أكثر ما يشعر الإنسان مباشرة بمباشرة الألم أو الحر أو البرد أو الضرب إنما يكون بتعريض الجلد للضرب أو الحرق أو التبريد أو التسخين.

---

(١) انظر الشعراوي، الأدلة المادية، ص ١٠٩، ١١٠.

ولهذا إذ احترق الجلد استشعر الإنسان الألم، وإذا احترقت تلك الأعصاب لم يعد إحساس بشيء، ولذا فإن تعذيب الإنسان يكون أول لحظات التعذيب فيما يقع على الجلد من الضرب ويكون الإحساس بالألم كثيراً، فإذا ما زاد الضرب وتخدرت الأعصاب أو تلفت لم يعد شعور بالألم. ولذا لو كان التهديد الرباني بالعذاب يحصل لمرة واحدة في احتراق الجلد بعد دخول الكافر في النار لاستهان الكفار بعد اكتشاف هذه الحقيقة العلمية، ولشعروا بأنهم يمكن لهم ان يرتاحوا بعد وجبة التعذيب الأولى.

ولهذا فإن الحق سبحانه حال بينهم وبين ما يمكن أن يريحهم فزاد تعذيبهم وقطع آمالهم في عدم استشعار العذاب والألم، فقال ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] ليعيد إلى تلك الجلود مرة أخرى أعصابها لتشعر بالعذاب، وعلل تبديل الجلود التالفة بالعذاب في قوله ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي كي لا ينقطع العذاب بعد الاحتراق الأول للجلود، وليستمر مرة بعد أخرى، فكلما نضجت جلودهم أي طبخت بالنار بحيث فقدت الإحساس، عادت إليها الأعصاب ليعود إليها الإحساس بالألم والعذاب، فهو عذاب مستمر لأنه خالد. ولهذا أخبر الله تعالى أيضاً عن كونهم معذبين عذاباً خالداً فيها غير مُنته في جهنم بأن هذا العذاب لا يخفف عنهم فقال تعالى:﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٥] وتفتير الماء الساخن من أجل تخفيف حرارته ليتحمله الجسم استحماماً أو شرباً. فإذا كان لا يُفتر فلا يخفف عذابه من ناحيتين: من ناحية عدم تخفيف عذاب النار، ومن ناحية أخرى بعدم فقد الإحساس بالاحتراق بتبديل الجلود التي نضجت ليعود لها الإحساس من جديد بالألم. نسأل الله لنا ولكم العافية.

وهناك حقيقة علمية أخرى من علم التشريح تقول: إنه لا وجود لأعصاب الإحساس في الغشاء المخاطي الذي يبطن الأمعاء حتى لا تشعر بالألم بسبب ما ينزل فيه من الطعام والشراب لتقوم بوظيفتها دون إحساس الإنسان بها، ولهذا فإن الله سبحانه ذكر في القرآن أنه إذا أراد إيقاع العذاب والألم الداخلي بالإنسان سقاه من جهنم ماء حميماً قطع الأمعاء، فيصل الإحساس بالألم عندما يصل إلى

التجويف البريتوني ومنه إلى الطبقة الخارجية من البريتون التي تحتوي على الأعصاب المشعرة بالألم قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

تخيلوا أن معرفة هذه الحقائق العلمية جعلت أستاذ التشريح التايلندي «تاجاثان تاجاسن» يشهر إسلامه عندما علم بأن كتاباً إلهاً نزل على سيدنا محمد ﷺ يقرر هذه الحقائق العلمية قبل أربعة عشر قرناً حيث قال: «أهذا الكلام قيل قبل أربعة عشر قرناً؟... إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثاً... ولا يمكن أن يكون قائلها بشراً... بل هي من الله سبحانه وتعالى.. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول»[١].

فسبحان من خلق الجسم ومن خلق العذاب. ومن أنزل كتاباً هدد فيه هذا الإنسان بالعذاب وبمنتهى الدقة في الوصف، فجعل ما خلق دالاً على عظمته، وما وصف في كتابه دالاً على عظمته، ومعجزة دالة على صدق رسالة رسوله محمد ﷺ.

(١) المرجع السابق ص ١٠٨، ١١٠.

ترتيب الحواس في القرآن

دال على عظمة الله

أظهر التقدم العلمي في علم الأجنة أن ترتيب خلق الحواس على النحو الآتي:

الطفل عندما يولد يسمع ولا يُبصر. بل إن الجهاز السمعي للطفل يكتمل في البطن في الشهر الرابع من الحمل قبل اكتمال جهاز البصر، والطفل يسمع الأصوات وهو في بطن أمه، بينما حاسة البصر عنده لا تبدأ عملها إلا بعد خمسة عشر يوماً تقريباً بعد الولادة. وهذا يعني أهمية جهاز السمع على جهاز البصر؛ ذلك لأن التفاهم مع المحيط الخارجي يحتاج جهاز السمع أكثر من جهاز البصر على أهمية جهاز البصر، ولكن الذي يفقد الجهاز السمعي يعاني كثيراً وتصعب حياته في تعامله مع المحيط الخارجي أكثر ممّن يفقد جهاز البصر.

ولهذا فإننا نجد اللامعين معرفياً من فاقدي البصر الذين يسمعون كثيرون بينما يندر أن تجد أخرساً لامعاً علمياً ومعرفياً. لماذا.؟ لأن السمع هو أداة معرفة اللغة، ومعرفة اللغة هي أساس التفاهم والعلم وتحصيل المعارف، لذا يقال إن الذي يفقد سمعه قبل النطق لا ينطق وهي حقيقة علمية مؤكدة.

وقد قدم الأطباء المجتمعون في أحد المؤتمرات الطبية في القاهرة عام خمسة وثمانين وتسعماية وألف بحثاً فيه رسم لخريطة المخ من خلال ترتيب آيات القرآن الكريم التي تتناول ترتيب هاتين الحاستين، السمع والبصر في القرآن الكريم، ووجدوا ان الترتيب المكاني للسمع والبصر في القرآن الكريم كما هو بالضبط نفس الترتيب داخل مراكز البصر كما ثبتت في آيات القرآن الكريم أن صفة (بكم) تقع دائماً بين صفتي (صمٌ وعمي) وهذا يدل على أن مركز البيان بين مركزي السمع والبصر.

وأثبتت الدراسة العلمية نفس هذه الدقة في الترتيب إذ وجدوا أن في قلب المخ جهازاً يسمى الجهاز النطقي وهو الذي يحتوي على العواطف والغرائز ويتحكم بها، ومن هنا فإن البناء الوظيفي للمخ يكون قد اكتمل لأنه عبارة عن عقل وعاطفة فالسمع والبصر يمثلان العقل، ويأتي الفؤاد ليمثل العاطفة العاقلة. أليس هذا دالاً على عظمة الخالق الذي خلق ووصف ما خلق.

وجعل ذلك آية دالة عليه، وجعل الإنسان يصل إلى هذه الحقيقة علمياً بعد أربعة عشر قرناً من وصفها له في القرآن الكريم !.

واسمع هذا الترتيب القرآن الكريم قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكلمة فؤاد في اللغة تدل على الطازج والناضج، فيقولون لحم فئيد أي مشوي وطازج؛ فالفؤاد هو حالة المعرفة الناضجة الطازجة للمدركات الحسية التي ينضجها العقل بالبناء المعرفي للدماغ، والإنضاج العاطفي للقلب المعبر عنه بالفؤاد.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١- ٣].

بين السمع والبصر ومعرفة الله في القرآن

ركز القرآن على أهم الحواس ذات الدلالة على حكمته في خلق هذا الإنسان ومعرفته، ومن هنا ركز على السمع والبصر ودورهما في المعرفة دون أن تعنيه الدراسة التشريحية لها؛ فهو ليس كتاب طب، ولكن لا يمانع من تلك الدراسات التي تخدم الإنسان بمعرفة خصائص هذين الجهازين ومراكزهما في الدماغ، ومعرفة طريقة علمهما مما يساعد على فهمهما وعلاجهما. وبما يلفت النظر إلى عظمة الخالق في تناولهما في القرآن بمنتهى الدقة في الوصف والوظيفة فهو الخالق سبحانه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. مما يجعل تلك الأبحاث العلمية متوافقة مع القرآن دالة على عظمة خلقه ودقة علمه، وبديع صنعته وعنايته، طبقاً لقوله سبحانه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] وقوله سبحانه ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقد أبرز القرآن في ذكره للحواس قيمتها المعرفية والإدراكية إذ قصد إلى التأسيس المعرفي لهذا الإنسان المميز على الأرض بعقله، والمكلف بأداء الأمانة، والقيام بمهمة الاستخلاف في الأرض التي هي ميزة تفضيلية على سائر المخلوقات. وذكر أهم وسيلتين للمعرفة وهما السمع والبصر. وأكد دورهما في الهداية والاستدلال على الله سبحانه بلفت النظر لاستقبال هذين الجهازين لما يقعان عليه مما في السموات والأرض، فيما هو مسموع صوتاً لمدرك حسي، ومسموع معرفة وخبراً، ومما هو منقول عما لم يشاهده ولم يسمعه في وقته، ومما هو مشاهد إبصاراً.

ولقد ذكر القرآن لفظ السمع ومشتقاته في القرآن في مائة وتسعةٍ وثلاثين موضعاً من آياته، كما ذكر ماله علاقة بهذه الحاسة في مائة وسبعين موضعاً، فيكون المجموع ثلاثمائة وتسعة مواضع. وذكر حاسة البصر وآلتها العين وما يتعلق بها في مائتين وأربعةٍ وسبعين موضعاً.

وقد جمع بين السمع والبصر في مواضع كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

وفي هذه الآيات كما سمعنا جمع بين الحاستين السمع والبصر في الآيتين الأوليَيْن وأظهرهما، كما جمع بينهما وبين الفؤاد لإنضاج مدخلات الحاستين، إذ يشار إلى العقل بالفؤاد، إذ العقل هو الذي ينضج المحسوسات لتصبح مدركات عقلية، وإن كلمة فأد اللحم من اللغة شواه، ولحم فئيد ناضج شهي طازج، ولهذا عبر عن الإنضاج العقلي للمعرفة الحسية - العقل- فسماه الفؤاد.

وقد ذكر القرآن حاسة اللمس في موضع للدلالة المعرفية ولكنها ليست الأصيلة في الإدراك، وإنما مؤيدة ومؤكدة ومقوية من التمكن من الإدراك البصري في قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأنعام: ٧]. فاللمس هنا مؤكد للإبصار للمبصر، وهو عوض عن البصر لغير البصر إذ يعوّض الإحساس بالبصر بالإحساس باللمس.

واللافت للنظر في الحديث عن الحواس وعن أهمها في القرآن خلافاً لما قدمته الفلسفات البشرية قبل نزول القرآن والتي تحدثت عن الحواس فيما هي مهمة لحفظ حياة الإنسان فرتبتها على غير ما رتبها القرآن؛ ذلك لأن القرآن كتاب هداية ومعرفة، وليس كتاب أحياء، فركّز القرآن في آياته على السمع والبصر أدوات للإدراك والمعرفة للنظر فيما تجلبانه في معروضات الكون وتاريخ الإنسان مما تصعب معرفته بدونهما، إذ لا غناء عنهما في الإيمان بالله، والنظر في أدلة عظمته، وسماع وحيه، إذ بوجودهما توجد المعرفة وأعلى أنواع معرفة الله سبحانه والإيمان به، وبأداء وظيفتهما يمكن للعبد معرفة ما يرضي ربه وما يغضبه، فيطيعه فيما أمر وينتهي عن معصيته فيما نهى. وهذا مناسب لغاية القرآن ومقاصدة في دعوته البشر لهدايتهم ولعبادته، لقوله تعالى

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

ومن هنا كانت نعمة التعلم بأدواته من السمع والبصر قرينة نعمة الخلق على الإنسان قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ - ٣]. وقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] .

حكمة تقديم السمع على البصر في القرآن

إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم في السمع أو ما يدل عليهما كحاستين وما يتعلق بهما نجد في أغلب الآيات وأكثرها، يقدم الله سبحانه فيها السمع على البصر، ولاشك أن في هذا التقديم ما يدل على عظمة الخالق في خلق هاتين الحاستين وعظمة إعجاز كلام الخالق في تناولهما. ومما جعل البشر في أبحاثهم العلمية في التشريح بعد أربعة عشر قرناً ونيف من نزول القرآن يجدون آيات العلم الدالة على عظمة آيات الخالق في حكمة وخلفه، وعلى عظمة بيان الخالق في إعجاز كتابه، حيث ثبت علمياً طبياً وتشريحياً أن اكتمال جهاز السمع عند الجنين في الشهر الرابع، وهو متقدم زمناً على اكتمال جهاز البصر عنده، وأنه عند الولادة يسمع الأصوات بينما لا يعمل جهازه البصري إلا بعد خمسة عشر يوماً من ولادته تقريباً.

فلماذا جاء هذا الترتيب خلقاً؟ ولماذا جاء الترتيب في القرآن الكريم نظماً كذلك غالباً؟

نعم: لقد كان المقصد من هذين الجهازين المعرفة والإدراك الدالين على أعظم المعرفة، وهي معرفة الله سبحانه. وأن السمع هو الجهاز المعرفي أو الآلة المعرفية الأهم في تحصيل المعرفة والتمكن من أداتها الأولى وهي اللغة، بينما البصر يتبعه في ذلك.

إن الظاهرة العلمية لهذا الترتيب لهاتين الحاستين السمع أولاً والبصر ثانياً في كل المواضع القرآنية باستثناء ستة مواضع فقط. قدم فيهما البصر وماله علاقة به على السمع وماله علاقة به.

وهذا يجعلنا نبحث عن التوجيه لهذه الظاهرة العامة، وعن التوجيه لما جاء خلافاً لها في المواضع الستة المذكورة على التفصيل الآتي:

أولاً: ما ورد في القرآن من تقدم السمع على البصر لغوياً هو أن المذكور أولاً أهم من المذكور ثانياً حتى ولو كان حرف العطف ليس حرفاً يقتضي الترتيب. وقد جاء هذا الترتيب بتقديم السمع على البصر في القرآن قاعدة مضطردة. ومن تلك المواضع قوله تعالى:

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ

ﭐلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]. وقوله:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] .

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩].

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢- ٣].

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

فالسر واضح في هذه الآيات من أن السمع مقدم على البصر، وهو أهم منه في الحياة الدنيا، حياة التكليف ولأن فيه إقامة الحجة؛ إذ السمع أوسع دائرة في تجميع المدرك الحسي في الهواء من جميع الجهات من البصر الذي لا يرى إلا ما يقابله، ولا ينقل إلا ما تقع عليه الأعين وما يقابلها.

والسمع أكثر تجميعاً إذ الأخبار والكلام والرواية والقصص كلها مسموعات والأخبار لا تُرى أو إذ قرئت في الكتب بالمشاهدة فيكون نقلها بالسماع. فالسمع يجمع بين الحاضر والماضي والإخبار عن المستقبل، بينما البصر محدود فيما يراه الإنسان ويشاهده في الزمان الحاضر. ولهذا السر كانت معجزة الرسول ﷺ طبقاً لعالميته دعوته معجزة سمعية، أي قرآناً يتلى ويسمع في كل زمان ومكان، وهو خالد في استماع الناس له إلى قيام الساعة بينما معجزات الأنبياء والرسالات السابقة الخاصة كانت معجزات مرئية مبصرة؛ لأن رسالاتهم كانت خاصة ولذلك كانت معجزاتهم مقتصرة على من يشاهدها. فجهاز السمع أعم وأطول وأشمل في مداه وفي زمانه من البصر.

قال الإمام الرازي رحمه الله:- «السمع أهم في توصيل نتائج العقول إلى الغير فكأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات أي المشاهدة من فعل ما ينقل القرآن من قصص الماضيين من أخبار وما يأمر به من أقوال وأفعال، وما يخبر به عن الله وعن الآخرة فمرده السمع لا البصر»[(١)].

والسمع يعمل ليلاً ونهاراً في الضوء وفي الظلمة وفي البعد والقرب على عكس البصر الذي لا يعمل إلا في النهار والضوء والمعاينة بالإشعاع، ولإظهار

هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ

(١) الرازي، التفسير الكبير تفسير سورة القصص.

إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢] فعقب سبحانه بحاسة السمع عند ذكر نعمة الليل تذكيراً بهذه النعمة عند الافتقار إلى النور والضياء أي في الظلام، وعقب بالتنبيه على نعمة النهار بالبصر لأن البصر لا يعمل في الظلام.

ألست ترى معنى أنك إذا أيقظت إنساناً من نومه فإنه يسمعك أولاً قبل أن يفتح عينيه ليبصرك؟!.

ثانياً: أما المواضع التي خولفت فيها هذه القاعدة في القرآن فقدم فيها البصر على السمع، فهي مواضع ليست معرفية في عالم التكليف، وإنما هي في الآخرة، إذ هنالك في الآخرة نعمة الإبصار ولذة ما يرى الإنسان أهم مما يسمع، إذ لا تكليف هناك بالإخبار عن الغيب، فهو مستمتع بما يبصر ويشاهد لا بما يسمع. ولذا كان أعلى أنواع السعادة لذة النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه. ولهذا كان عذاب المعطلين لأبصارهم في الآخرة جزاء لما عطلوها في الدنيا فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل بأن يحرمهم الله نعمة النظر إليه، قال تعالى فيهم﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] إذ الأنعام نعمة الأبصار عندها مقدمة على السمع لأنها ليست مكلفة، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾[هود: ٢٤].

وقال:﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء: ٩٧].

وقال في شأن من ندم في الآخرة بعد رؤيته للعذاب لما في قوله تعالى عنهم

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٢] فسبحان من خلق وهدى، وقدم وأخر.

الشمس آية دالة على الخالق

لا يملك أحد أن ينكر وجود الشمس وعظمة وجودها وأثرها في الحياة الإنسانية وحياة النبات. وهي في ذاتها وتركيبها آية دالة على الخلق الذي خلقها ونظم أمرها وهو يُزوّدها باستمرار مما يجعلها آية نافعة وضرورية للحياة فما هذه الشمس؟

فقد ثبت لدى علماء الفلك علمياً أن الشمس فرن ذري رهيب وعظيم، ومصنعٌ للطاقة لا مثيل له، ولا يملك بشر أن يخلقه على هذا الحال. «فهو يُحَوِّل في كل ثانية خمسمائة وسبعة وثمانين مليون (٥٨٧) طناً من الهيدروجين إلى خمسمائة وثلاثة وثمانين (٥٨٣) مليون طن من الهيليوم، وما يتبقى من الطاقة هو أربعة ملايين طُن يقذفها هذا الفرن إلى خارج الشمس على شكل إشعاع تُصيبنا منه نحن في الأرض جزءان فقط من مليار جزء من الإشعاع وقطر الشمس هو ثمانمائة وأربعة وستون ألف (٨٦٤.٠٠٠) ميلاً وهي تحتوي قريباً من بليون متر مكعب من الغازات المختلفة الساخنة جداً. ووزنها أكثر من ألفي كوادر بليون طن - والكوادر بليون رقم مؤلف من واحد إلى يمينه خمسة عشر صفراً- وينتقل الضوء المرئي وغير المرئي من الشمس بسرعة ثلاثة وتسعين مليون ميل في ثماني دقائق ونصف الدقيقة»[١]. فَمَن الذي خلق هذا الجرم الرهيب وبهذه المواصفات؟ إنه الله سبحانه.

ثم تعال معي لأقسام الشمس التي تتركب منها فهي[٢]:

١. **قلب الشمس** أو نواتها وهي مبعث الطاقة الهيدروجينية التي يتم فيها الانصهار وتحويل الهيدروجين إلى الهيليوم، وبدرجة حرارة تصل إلى أربعة عشر مليون درجة مئوية. ومن شدة تلك الحرارة تحصل زوابع ودوامات حرارية هوائية، وهي التي تتأثر بها الأرض، وهي من نوع أشعة جاما المتصاعدة من على سطح على مسافة ثلاثمائة آلاف ميل من جميع الجهات. ورغم هذا كله فهذا القلب للشمس لا ينهار، وهو يزود باستمرار لتتوالى وتستمر عملية الانصهار الدائم والانفجارات النووية

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً، البرهان الواحد والعشرون، ص١٤٤.
(٢) المرجع السابق ١٤٤ – ١٤٧ بتصرف واختصار.

الدائمة. فَمَن الذي يزودها ويخلق في نواتها ويجدد هذا القلب بحيث لا ينضب مخزونها؟ إنه الله سبحانه الذي أراد لها أن تنتهي إيذاناً منه يوماً ما بقيام الساعة. فيوقف هذا التزويد ليبدأ يضمر حجم هذه الشمس، وينضب ما فيها حتى تصبح أصغر من الأرض، وستبرد وأخيراً تنطوي جذوتها وتصبح سوداء باردة، وهذا ما يقوله علماء الفلك، ويتنبأون به علمياً. ولا تستغرب أن هذه الحقيقة العلمية التي يقررها العلماء قد أدهشهم ما قرره القرآن الكريم فيما الخالق لنا سبحانه عن نهاية هذه الشمس بقوله:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١] أي لُفَّت وذهب نورها، ثم انتثرت في الفضاء الخارجي، ويصفها الله تعالى بقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾[الانفطار: ١ - ٢] أي انقضت مهمتها وسقطت.

٢. وأما القسم الثاني للشمس فهو **مصنع الطاقة** الذي يتم فيه التفجير.

٣. والثالث هو **الكرة الضوئية** وهي الطبقة المضطربة، وسمكها ثمانون ألف ميل، تموج وتمور بألسنة اللهب المضطرمة. والله سبحانه بحكمته يحمي درب التبانة من أن تلتهمه بطاقتها المخيفة. وعلى هذه الكرة بقع شمسية وهي عواصف مغناطيسية مختلفة في مساحاتها، حرارة بعضها تصل إلى (٤٦٠٠) أربعة آلاف وستمائة درجة مئوية، بينما حرارة الشمس خمسة آلاف وخمسمائة درجة مئوية. وفائدة هذه البقع للتأثير على الإذاعات اللاسلكية ولها علاقة بمادة الكولوروفيل الضروري للنبات.

٤. وهناك القسم الرابع وهو **الطبقة القرمزية اللون**، وعمقها عشرة آلاف ميل، وتمثل جو الشمس الكثيف، ومكونة من الهيدروجين على هيئة أقواس قد يصل ارتفاعها إلى ثمانية وأربعين ألف كيلو متر وطول وتر القوس أكثر من مائتي ألف كيلو متر.

٥. وهنالك القسم الخامس **الإكليل الشمسي**، وهو جوها الخارجي اللامع الذي لا يمكن رؤية الشمس من النظر إليه إلا كشكل القرص، وهو الذي يضيء المجموعة التي تبلغ عدد نجومها ما يزيد على المليار نجم.

فمن الذي خلق الشمس وركب أقسامها وزودها؟ هل يملك بشر أن يزعم

أنه فعل ذلك أو أنها خلقت نفسها بنفسها؟ إنه الله الخالق سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ يَجْرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

الحديد آية دالة على عظمة الخالق

هل تعلم أن الحديد الذي هو نعمة من نعم الله عز وجل للإنسان، لمِا يصنع منه أسحلته ويبني بنيانه، ويصنع معظم أدواته؟ وأن هذا الحديد أنزله الله تعالى من السماء فمصانعه في السماء قبل أن تكون تضيعانه في الأرض من قبل الإنسان؟

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة العلمية في القرآن قبل أن يكتشفها الإنسان لقد لاحظ العلماء أن ذرات من الحديد تنزل من السماء مع الثلوج النازلة في شمال سيبيريا. وتساءلوا من أين جاءت هذه الذرات؛ فالماء المتجمد في السماء ماء نقي فمن أين اختلطت به هذه الذرات من الحديد، ومن أين جاءته؟ ووجدوا بالبحث أنها من مخلفات الشهب والنيازك التي يحيلها الغلاف الجوي للأرض إلى رماد. ولقد ذكر العالم «آرثر بيرز» في كتابه الأرض أن النيازك أقسام ثلاثة[1]: نيازك حديدية مكونة من ثمانية وتسعين في المائة فيها من الحديد والنيكل، ونيازك حديدية نصفها من الحديد والنيكل ونيازك حجرية فيها نسب من المعدن، وهذه النيازك في الفحص الإشعاعي لها وُجد أن عمرها قبل عمر الأرض.

ولقد اكتشف العلماء أن شهاباً قد سقط على الأرض في ولاية «أيرزونا» فحفر في الأرض حفرة عمقها ستمائة قدم وقطرها أربعة آلاف قدم ومعه شظايا من النيكل الممزوج بالحديد ما زالت مبعثرة في المكان. وكان في هذا النيزك آلاف الأطنان من الحديد من مجموع وزنه البالغ تقريباً ثمانية آلاف وخمسمائة طن، وهذه النيازك تتساقط باستمرار من السماء على الأرض، وقد تحمل سبائك من الحديد والنيكل تبلغ أطناناً، وهي في مجملها مقذوفات فلكية من ذرات مختلفة الأحجام. ولقد ثبت أن الحديد هو أول المعادن التي عرفها الإنسان على وجه الأرض.

ترى بعد أن اكتشف العلم أن مصدر الحديد هو من السماء وليس من الأرض ألا يتعظ هذا الإنسان ليعلن إيمانه بالخالق سبحانه الذي خلق هذا الحديد في السماء، وأنزله على الأرض؟ وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الحقيقة قبل أن يكتشفها الإنسان بأربعة عشر قرناً في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الثاني والعشرون، ص ١٤٩.

وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

بل جعل سورة من سور كتابه العزيز تحمل اسم هذا المعدن وهي سورة الحديد. فالحديد سورة وآيات ربانية قرآنية وآية كونية كلاهما دالة على عظمة الله سبحانه.

ويؤكد هذه المعلومة الإعجازية في القرآن ما توصل إليه العلماء[١] حيث يقول الدكتور «استروخ» وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء: لقد أجرينا أبحاثاً كثيرة على معادن الأرض وأبحاثاً معملية... ولكن المعدن الوحيد الذي يحيّر العلماء هو الحديد، فذرات الحديد لها تكوين مميز، إن الإلكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية. ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد على الأرض، ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من بشر. فسبحان من خلق الحديد، وسبحان من أنزل سورة الحديد، وسبحان من جعله آية دالة على عظمة الله خلقاً وتنزيلاً وﷺ على من أنزل الله عليه الآيات، وأوحى إليه في سنته فقال عليه الصلاة والسلام: "أنزل الله أربع بركات من السماء، الحديد والنار والماء والملح".

---

(١) انظر: الشعراوي: الأدلة المادية على وجود الله ص(١١٩، ١٢٠) وانظر ابن خليفة عليوي، سبعين برهاناً، ص ١٤٩ – ١٥١.

البحار آية دالة على الخالق سبحانه

لفت الخالق سبحانه أنظار عباده ليروا آياته في الكون المشهود، وأخبرهم بآياته المتلوة المليئة بالحقائق الدالة على وجوده. قبل أن تصل عقولهم وأبحاثهم وعلومهم إلى هذه الحقائق. فإذا ما وصلوا إليها فمن المفروض أن يزداد يقينهم بعظمة خالقهم سبحانه إذا كانوا مؤمنين، وإن كانوا غير مؤمنين فإن الحجة تقوم عليهم ليعيدوا النظر فيما هم عليه من كفر وظلام وجاهلية ليخرجوا منها إلى الإيمان والإسلام والنور.

وتعرض هنا للبحار وما فيها من آيات دالة على عظمة خلق الله لها سبحانه: لاحظ العلماء حقائق تحكم علاقة البحار فيما بينها من حيث أن مياه كل بحر تختلف في مواصفاتها من حيث الكثافة والملوحة عن البحر الآخر، فإذا ما اتصلت البحار بعضها ببعض في أطرافها وجدوا أن مياه البحار لا تختلط ببعضها رغم التقائها، وتحتفظ كل كتلة مائية لكل بحرٍ بخصائصها من الكثافة والملوحة والحرارة والأحياء المائية وسائر الخصائص.

ولهذا قام علماء مختصون في علوم البحار عام ١٩٦٢ باختبار المياه في مضيق باب المندب حيث يلتقي البحر الأحمر بالمحيط الهندي، وأخذوا يقيسون ويفحصون خصائص الماء لكل من البحرين عدة أشهر، فوجدوا أن ثمة خطّاً واحداً يفصل بين المائين، وأنه متحرك حسب هبوب الرياح الموسمية، فهو في حالة هياج واضطراب ذهاباً وإياباً، وهذا الحاجز يُرى واضحاً بالعين المجردة، فانظر في مصب أي نهر في بحر وهو واضح جداً في مصب نهر الأردن في البحر الميت المعروف بشدة ملوحة مائه وكثافته، فإنك تجد الحاجز واضحاً لمسافة كبيرة دون أن يختلط ماء النهر بماء البحر، وكذلك فإن ماء البحر يدخل النهر عند حدوث حالة المدّ، ولكن ماءهما لا يختلطان، فيبقى ماء البحر مالحاً وماء النهر عذباً.

وهذه الظاهرة مفسرة علمياً بما يسمى **بقانون المد السطحي** حيث يختلف تجاذب الجزئيات من سائل لآخر، فيحتفظ كل سائل باستقلاليته في مجاله وخصائصه. ولقد لفت القرآن نظر الناس إلى هذه الآية الكونية الدالة على عظمة الخلق سبحانه فقال في محكم التنزيل:﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٣- ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وفيما تشير إليه بعض الآيات إلى الأنواع المختلفة من الحيوانات ذات اللحم الطري لأنها تعيش في الماء، وأن هذه الحيوانات بعضها أزكى من بعض، فما يعيش في البحار المالحة أسهل هضماً مما يعيش في مياه الأنهار العذبة.

ولقد ذكر علماء البحار حين صوروا أعماق البحار أموراً عجيبة في الحواجز التي تفصل بينها، حيث صوروها من الأقمار الصناعية فوجدوا أن البحار على هذه الأرض ليست واحدة، وليست موحدة في تكوينها المائي، بل هناك حواجز بينها، واختلافات واضحة في درجات حرارة مياهها وفي ملوحتها، ونسبة الأوكسجين فيها، وفي ألوان مياهها، ولذلك عبروا عن أسمائها وألوانها فقالوا: البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأسود، والأزرق.

فسبحان من خلقها بمواصفاتها وخصائصها وألوانها مع أنها مخلوقاته الواحدة في جنسها، ليدل ذلك كله على عظمة الخلق والخالق ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

ولذلك لما سمع بعض علماء البحار أن القرآن قد أشار على هذا قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من وصول العلماء إلى هذه الحقائق العلمية قالوا عن القرآن إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ظلمات البحر آية دالة على الله

يضرب الحق سبحانه ما عليه الكفار من ظلمة الكفر مثلاً بظلمات البحار في أعماقها وتلاطم أمواجها موجاً من فوق موج، وما فيها من سحاب من فوقه ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض. وهكذا فإنه لا يخرجه من هذه الظلمة إلا نور الحق والهادي له من الله، وأن من فقد هذا النور الهادي فليس له نور يهديه، بل هو كمن في الظلمات. ولنستمع إلى قوله تعالى يصور تلك الحقائق لظلمات البحر في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولنستمع إلى ما يقوله علماء البحار في أبحاثهم وتجاربهم وتصويرهم لطبقات البحار وأمواجها في الأعماق المظلمة تحت الأمواج السطحية وإلى المناطق الملبدة بالسحب والغيوم التي تحجب ضوء الشمس مما وصفه الله تعالى في كتابه قبل أن تصل إليه العلماء.

اكتشف العلماء الإسكندنافيون عام تسعمائة وألف ميلادية أن هنالك أمواجاً داخلية في المحيطات غير الأمواج السطحية التي نراها بواسطة الصور من الأقمار الصناعية، وأن طول هذه الأمواج الداخلية يصل إلى عشر كيلو مترات، وأن سمكها يصل آلاف الأمتار، وأن المسافة بين الموجة والموجة المجاورة لها في الأعماق قد تبلغ ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات وأن هذه الأمواج لا توجد إلا في المحيطات المظلمة حيث تبدأ ظلمة البحر على عمق مئتي متر، وكلما زاد العمق زادت الظلمة حتى تصبح ظلمة مطلقة على عمق ألف متر؛ إذ يستحيل وصول ضوء الشمس إلى تلك الأعماق بسبب تراكم المياه والأمواج الداخلية والخارجية، وبسبب الغيوم الكثيفة التي تتشكل من السحب التي تحجب ضوء الشمس.

وهذه المنطقة العميقة هي الطبقة الثالثة في تقسيم طبقات البحر كما يصطلح عليها علماء البحار، حيث هناك الطبقة الأولى السطحية لمياه البحار وهي المتعرضة لضوء الشمس، والطبقة الثانية وهي طبقة الأعماق الضحلة العميقة من الشواطئ. أما الطبقة الثالثة فهي العميقة في عرض البحر حيث

تعيش الأسماك الضخمة التي تسبح وتتحرك بحرية مطلقة وبقوة ويتكيف مع ظلمة البحر في الأعماق.

فهي كما توصل العلماء إلى ذلك تتكيف لتعيش وتحصل طعامها ولتحمي نفسها من أعدائها، ففيها قابلية تغيير ألوانها بحسب لون الماء الذي تعيش فيه حتى لا يراها أعداؤها. وهي تستطيع أن تتحرك في ذلك الظلام الدامس،كما وصفه القرآن ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾. ولذلك جعل الله فيها قدرة على إطلاق أضواء تهديها، ولكل منها طريقة في إطلاق هذه الأضواء حيث وصفها العالم (جورج. ل كلارك) بأنها تبعث أضواء تشبه عروض الألعاب النارية إذ تطلق ومضات الضوء بمعدل خمس ومضات في كل ثانية، وبعضها مثل سمك أبو الشص تجوب البحر بحثاً عن صيدها (١٥٠٠) ألف وخمسماية متر وتمد أمامها قضيباً يبلغ طوله ضعف طول السمكة يتلألأ عند حافته عضو وضاء. وهناك أسماك يكون عضو الإضاءة داخل فم السمة خلف أسنانها، وبعضها تحمل بكتيريا مضاءة تحت أعينها. ويقول (جان بيكار) بعد أن هبط بغواصته إلى عمق أحد عشر كيلو متراً (١١) كم في هوّة ماريانا: إن أعماق البحار تشبه السماء ذات النجوم المتلألئة بسبب الأسماك المضيئة.

وجاء في كتاب «البحر المحيط» بنا (لراسل ل. كارسون) أنهم كانوا يرون وهم يبحرون خارج منحدرات شواطيء النرويج حيوانات الأخطبوط على طول أميال متعددة في المياه السطحية، وكأنها بالونات مضيئة شبيهة بمصابيح تضيء وتطفئ وأن هناك إضاءات فسفورية في الأعماق المظلمة، وأن هناك ضوءاً عارضاً يعادل ضوء القمر في لمعانه.

فسبحان من خلق البحر، وخلق ما فيه من الحيوانات.

وسبحان من هداها لتسهيل عيشها وكسب رزقها، وحماية نفسها والدفاع عن وجودها.

وسبحان من هداها بإطلاق أنوارها وإضاءاتها.

وسبحان وصف هذه الحقائق ليجعلها مثلاً لمن اهتدى إلى نور الإيمان: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ملوحة المياه وعذوبتها آيات دالة على الله

والمياه إما مالحة وإما عذبة، وتتباين ملوحة المياه في البحار. والملوحة هي وجود مركبات كيماوية ذات طعم مالح من كلوريد الصوديوم والمغنيسيوم والكالسيوم وسائر المركبات والعناصر المالحة.

وقد حاول العلماء على مر تاريخ العلوم لتعليل ملوحة البحار والبحيرات المالحة. وتراوحت نظرياتهم في أن أسباب هذه الملوحة هو التآكل التدريجي لسفوح الجبال بفعل الجليد والتّحاتّ والعوامل الجوية، مما ينشأ عنه بعض الكيماويات التي يذيبها ماء المطر، وتحملها الأنهار إلى المحيطات والبحار. وأما باقي أملاح البحر فتأتي من الصخور الموجودة في قاع المحيط(١).

ولاشك أن أملاح البحار ذات قيمة كبيرة في تزويد الناس بالملح سواء ما كان منه ملح الطعام الضروري لحياة الإنسان أو الأملاح الأخرى اللازمة لسماد النباتات والصناعات الأخرى. فالأملاح نعمة مفيدة لحياة الإنسان، كما أن هذه الملوحة للبحار مفيدة جداً للحفاظ على الثروة السمكية حتى لا تتعفن الأسماك وتهلك لو كانت المياه عذبة. فالأملاح ذات فائدة عظيمة في التعقيم للمياه وحفظ الموجودات فيها من التلف.

ولقد قدر العلماء أن مياه البحار تحوي في داخلها مالا يقل عن أربعة ملايين ونصف المليون ميل مكعباً من الملح.

فمن أين تأتي هذه الكمية الهائلة؟ هل هي فعلاً فقط مما يتسرب إليها من تَحاتّ الجبال مع الأنهار؟

إن هذه النظرية غير قادرة على تفسير وجود هذه الكميات الضخمة جداً من الملح في البحار. ولذا علل بعض العلماء أنها جاءت من براكين من أعماق جوف الأرض خرجت بالنشاطات البركانية تحت البحار.

ولكن هذه النظرية غير كافية أيضاً لهذا التعليل، إذ ثمة بحيرات كبيرة هي بمثابة بحار، وهي عذبة فلا تجعلها تسربات مياه الأنهار مالحة، ولا تحمل إليها أملاح الجبال، ولا هي مالحة بفضل النشاط البركاني، ومنها البحيرات الخمس في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي من البحيرات الخمس عشرة العذبة في

---

(١) انظر التفاصيل، ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الثاني والخمسون، ملوحة البحار ص٢٩٤ ــ ٣٠٠.

العالم. وكل هذه البحيرات عذبة وصالحة للشرب والري. ومع ذلك فثمة بحيرات أخرى مالحة بل شديدة الملوحة مثل بحيرة جريت سولت ليك (Grate Salt Lake) وبحر قزوين، وبحيرة لوط (البحر الميت)[١].

فما التعليل الحقيقي لملوحة البحار وبعض البحيرات وعذوبة المياه في بعض البحيرات في مناطق أخرى؟

يقول العلماء الكيميائيون الطبيعيون أن ماء النهر العذب أخف من ماء البحر المالح، ولذلك يطفو الماء العذب على وجه ماء البحر المالح ولا يختلط به. وعلى حد زعمهم هذا ينبغي أن ينطبق على جميع البحيرات العذبة التي تصب فيها أنهار تحمل أملاحاً ألا تختلط مياه الأنهار بمياه البحيرات، فإما أن تلك الأجزاء الملحية التي تحملها مياه الأنهار ترسب في البحيرات، وتذوب شيئاً فشيئاً فتصبح مياه البحيرات العذبة مالحة، وإما ألا تترسب وتذوب فتطفو على سطح الماء، ومع ذلك فإننا لا نرى ولا نجد هذا الافتراض ولا ذاك، بل تبقى البحيرات العذبة على عذوبتها، والمالحة على ملوحتها، إذن: فمن الذي يمنع من ملوحة البحيرات العظيمة العذبة التي تصب فيها الأنهار التي تحمل أملاح الجبال بل تبقى عذبة مع أنها حسب منطق العلماء يجب أن تصبح مالحة أشد من ملوحة البحار لأنها صغيرة المساحة بالنسبة للبحار الكبيرة؟

ولا يجيب على هذه الأسئلة إلا الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق الماء والبحار، وهو الذي نوّع المياه فجعل منها ما هو عذب فرات سائغ شرابه، وجعل منها ما هو مالح أجاج، حتى تستقيم حياة الإنسان بالماء العذب للشرب، والماء المالح لحياة الأسماك ولسائر استعمالات الأملاح وفوائدها للملاحة. وهذا التخصيص لمياه بالعذوبة ولأخرى بالملوحة، هو حكمة رب له إرادة تخصص المخلوقات بالمتضادات من الصفات قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وهو ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣، ١٢٨، ١٣٩]. ولنستمع إلى هذا السر في قوله تعالى مُعّللاً ظاهرة ملوحة مياه البحار وعذوبة مياه بحار أخرى بما يعجز العلم عن تعليله الكافي رغم فرضياته المختلفة قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

ويجعل الله تعالى عذوبة الماء للشرب نعمة يمنّ بها على الإنسان، وآية دالة على وجوده وقدرته وإرادته، وحكيم صنعه ولطفه فيقول ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠]. إذن التفسير الوحيد هو أن الله تعالى بحكمته جعل الماء منه ما هو عذب ومنه ما هو مالح. وكل تفسير سوى ذلك قاصر ولا يعطي التفسير اليقيني الصحيح.

عجائب مخلوقات البحر دالة على عظمة الله

مخلوقات الله دالة على وجوده، وما فيها من دقة وهداية دالة على علم الله سبحانه وتعالى وإرادته وحكمته قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[النمل: ٨٨].

ذكرنا فيما مضى عجائب خلق الله في المخلوقات البرية، ونتحدث اليوم عن هذا الوسط الذي يعطي المساحات الكبيرة من الكرة الأرضية وهو وسط البحار، في أعماق هذا الماء الذي هو ظلمات بعضها فوق بعض. وهو يحوي سلة غذائية احتياطية كبيرة وغنية لهذا الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[النحل: ١٤]. واللحم الطري هو السمك الذي يعيش في البحار رغم ملوحتها، فإن هذه الملوحة الحافظة للأسماك لا تتسرب إلى لحم الأسماك، فلحومها ليست مالحة، ولا تمتص ملوحة البحر ولا تتأثر بها، وإلا لما استساغ الإنسان أكل شيء من لحوم الأسماك، ولما انتفع من هذا الغذاء الشهي بشيء وهذه آية من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

ثم تعال إلى ما لا نستطيع إحصاؤه من المعلومات من عجائب قدرة الله في هذه المخلوقات البحرية.

ونستطيع أن نقتبس نماذج بسيطة من هذه المعلومات الدالة على عظمة الخالق وحكمته وهدايته: فقد نوّع الأسماك في أشكالها وطعومها، فمنها ثديية، ومنها ذات بيوض: ولها ألوان مختلفة؛ وأشكال مختلفة، وأحجام متباينة؛ فمنها صغير كالسردين، ومنها أسماك لا تصل إحداها كيلوغراماً واحداً، ومنها أسماك تبلغ أوزان الكيلوات القليلة، ومنها ذات أوزان كبيرة، ومنها حيتان يبلغ طولها عشرات الأمتار، وتبلغ أوزانها مئات الأطنان. فعلى سبيل المثال فقد اصطاد الأسطول الياباني سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف حوتاً من نوع الكبريت، وهو أنثى بلغ طولها سبعة وعشرين متراً، وبلغ وزنها مائة وخمسة وثلاثين طناً رغم أنها لم تكن سمينة، وكان وزن لسانها فقط ألفين وستمائة وستة وستين كيلوغراماً، وكان وزن كبدها ثمانمائة وتسعة وثمانين كيلوغراماً، وكان وزن قلبها أربعمائة وعشرين كيلو غراماً، وبيعت بثمانية وعشرين ألف

دولار، وقد استخرجوا منها زيتاً قيمته عشرة آلاف دولار، وقيمة لحمها ثمانية عشر آلاف دولار[1].

أما أنواع الأسماك فهي أكثر من أن تحصى فمنها على سبيل المثال: سلاحف البحر، وطيور البحر، ولها أجنحة وتطير فوق سطح البحر، ولها أجنحة كالطيور، وفيها محار البحر، وسرطاناتها وفيها قمّام أو زبال البحر يتغذى على أوساخ السمك وفضلاته لينقي البيئة البحرية، وفيها كلب البحر، والبقر البحري، وحمار الوحش البحري، والجمبري وإسفنج البحر، وديدان البحر، والحيتان الضخمة الكبيرة، وحمام البحر، ونجم البحر وأوز البحر وجراد البحر، والسمك العذراء، والقناور، وصدفة المحار وحدها تتمتع باثنتين وثلاثين عيناً، كل عين منها تشبه تركيب عين الإنسان، ومنها حيتان، الحوت الواحد فيه كأن رأسه قمة جبل قد برز من الجليد، ومنها سباع البحر، والدرافيل وفيلة البحر.

أما خلقة الأسماك وهندسة شكلها وتصميم أجسامها، فجلّت قدرة الله الصانع لها، فقد صممها بحيث تستطيع التغلب على جاذبية الماء لها، وجعلها قادرة على التغلب على سُحُب الماء لها مهما بلغت أوزانها، فإنها تستطيع مقاومة الضغط المائي حتى لو بلغ ملايين الأطنان، بحيث تصل سرعة بعض هذه الأسماك ثمانين كليو متراً في الساعة كسمك المارلين الأزرق. فأجسام السمك ذات شكل زلق يستطيع أن يشق طريقه في الماء كالطير يشق طريقه في الهواء، وتستطيع السمكة أن تسبح في الماء، وجسمها تحت الماء ورأسها يرتفع فوقه لأخذ الأكسجين ثم تخزنه في خزان كبير. وللأسماك زعانف من أجل التوازن كأجنحة الطيور في الهواء وتستعملها كدفاف لتوجيه الحركة وككوابح للوقوف، ولها مراكز على جانبي جسدها حساسة للضغط والصوت تساعدها على تغير حركتها إذا ما شعرت بالخطر، ولها أكياس توازن وهي منتجات داخلية مبطنة بشعر دقيق وبداخلها جسيمات حبيبيّة للتنبيه في الظلام على مستوى ارتفاعها في الماء. وكذلك فلهذه المخلوقات أصوات في البحر، فلا تصدق أن البحر ساكن وهادئ فكما هو مليء بالحركة والنشاط فهو مليء بالأصوات، ولقد سَمعت تلك الأصوات للأسماك وسُجِّلت فتستطيع أن تسمع مواءً غريباً، وتعويلاً وصراخاً، وولولة، ونواحاً خفيفاً، وتغريداً أشبه بالغناء،

---

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ٣٠٤.

وأصوات عصافير، وأصواتاً مختلفة[1]. نعم إنه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥] ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

نعم إنها آيته الدالة على عظمة خلقه وهي لا تحصى ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣].

(١) انظر المرجع السابق، ص ٣٠٢.



اللؤلؤ والمرجان آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى

يقول الله سبحانه وتعالى: مذكراً الإنسان بنعمة من نعمه في البحار والأنهار، وهي نعمة ما يتخذه الإنسان من زينة مستخرجة من البحار والأنهار، وهي نعمة اللؤلؤ والمرجان. فما قصة هذين الصنفين من الزينة، وكيف يخلقهما الله سبحانه، وكيف يكتشف العلم عظمة الخلق بعد أن أشار إلى ذلك القرآن وقبل وصول العلم إلى ذلك؟ ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٣].وثمة آراء علماء البحار في تكوّن هذين النوعين من الأحجار الثمينة جداً[١]، مما يدل على أنها آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه، وقد توصل العلماء بعد ملايين السنين إلى عجائب قدرة الله في تكوينهما يقول (سموندس في كتابه عجائب البحار): «وما زلت عند حَدّ قولي في خطابي الذي لفظته على أعضاء جمعية الفنون منذ بضع سنين من أننا ما برحنا نجهل أموراً شتى عظيمة الأهمية من حيث نسبتها إلى توليد هذه المادة البديعة، واستخراجها، والقليل الذي نعرفه عنها، يدلنا على أن نمو المرجان سريع جداً وأن تقدمه بسيط، وأنه يألف الأحوال مهما تباينت، وأن الفذّة المنفصلة عن جذعه أو عن جرثومته المنفصلة لا تخلو من الحياة، بل تختار من تلقاء نفسها مادة أخرى ثابتة... وأنك إذا ألقيت إلى البحر شيئاً وكان إلى جواره المرجان لا تمضي على ذلك الشيء بضعة شهور إلا وتجده مغطى بالمرجان[٢]. فالمرجان حيوان على شكل شجرة نباتية لها جذع وساق وأغصان. ولا تستغرب إذا رأيت هذه الشجرة الصلبة الحجرية بألوانها الصفراء البرتقالية، أو الحمراء القرنفلية أو الزرقاء الوردية، أو الحمراء اللحمية أنها في بدء أمرها من بيضة حيوانية خلقها الله تعالى لتصبح حيواناً مسؤولاً عن هذا الشكل المرجاني الذي قد تصل في أعماق البحار صخوراً

---

(١) تفاصيل هذه المعلومات منقولة عن ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الثامن والأربعون، ص ٢٧٨ – ٢٨٣.

(٢) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ٢٧٨.

كبيرة تشكل حاجزاً عظيماً بالقرب من ساحل أستراليا، ممتدة ألفاً ومائتين وستين ميلاً طولاً، والواصلة إلى عمق ثمانية آلاف قدم، والتي يبلغ اتساعها ليصل إلى ما بين سبعة أمتار إلى مائة متر، كلها من صنع هذا الحيوان الضئيل وهو المرجان.

ويفرز المرجان مادة البحر أو الكلس الذي يتحول في النهاية إلى الكورالين، وهذا أحد صخور الحجر الجيري، يعيش على شكل مستعمرات في البحار، وسلاسل صخرية نامية يوميّاً، حيث يتكاثر بإنبات براعم تنضج لتصبح مرجاناً جديداً؛ حيث يصبح على شكل شجرة ذات فروع نابتة على الصخر، وجسمه مادة صخرية حمراء يغطيها كساء لحمي تتفرع منه أجسام أنبوبية، تنتهي أطرافها بفَم حوله ثمانية مجاس- أي شعيرات وأطراف دقيقة جداً يجس بها-، وتراها بعينَك المجردة تتحرك، فهي أحياء أنبوبية مستقلة في تركيبها لكنها متحدة في الكساء العام اللحمي، وهي التي تصنع المادة الحمراء الثمينة المعروفة بالمرجان الرائع الجمال، والذي يتخذه الإنسان زينة.

أما اللؤلؤ فذاك آية ربانية بحرية أخرى، تراه مادة صلبة رائعة اللمعان، حجارة جذابة، ثمينة أثمن من الذهب، يُحلّي بها الذهب، ويُزيَّن بحجارة صغيرة منها، فتزيده جماله جمالاً، وبهاءه لمعاناً. وهل تعلم أن هذه اللؤلؤة مؤلفة من أصداف من مادة كربون الكالسيوم مع قليل من المادة الحيوانية والأصداف، تتولد داخل الصخور، وهي دقيقة الحجم ثم تكبر بما تفرزه المياه من مواد حيّة ومعادن تتآلف فيما بينها تآلف الحيوان المنوي مع البويضة لتصنع منها اللؤلؤة.

ولكلما نمت الصدفة نمت المادة العجيبة المفرزة التي تعرف باللؤلؤ. وهذه الصدفة أو المحار في عمره من الخامسة إلى السادسة يكون اللؤلؤ الذي فيه ثميناً أكثر من عمرها قبل ذلك، أما إذا عاش المحار إلى السنة السابعة تضاعف ثمن اللؤلؤة. ولابد من استخراج اللؤلؤ في الوقت المناسب، فإذا أخرج قبل وقته لم يكن كاملاً وإذا أهمل كثيراً مات الحلزون وذهب اللؤلؤ. فسبحان من خلق ونظم ووقّت. فكأنها الجنين إذا خرج قبل وقته مات، وإذا تأخر في بطن أمه عن وقته المعروف هلك أيضاً.

ويصف بعض العلماء كيفية تكون اللؤلؤ، فيقول: تتكون اللؤلؤة في أنواع خاصة من المحارات وهي محارات اللؤلؤ، فإذا دخلت دودة أو حبيبة رمل أو أي شيء غريب بين جسم المحار وصدفته، تهيج المحار كي يتخلص من الغريب، وأفرز غلالة لؤلؤية حوله لتخفف تهيجه، وتلك الغلالة مكونة من كربونات الكالسيوم، ويستمر تهيج المحار وإفراز المادة اللؤلؤية حتى الموت، وإذا لم يمت يلفظ اللؤلؤة أو يغوص في قاع البحر. فسبحان من خلقه وهداه.

ولقد أشار القرآن إلى أن اللؤلؤ والمرجان موجودان في البحيرات العذبة كما هو في البحار المالحة خلافاً لما كان يعتقد الناس أنه يتكون في البحار فقط، مما اكتشف العلماء أخيراً وفي القرن السادس عشر أنه موجود في الأنهار أيضاً، بينما ذكر القرآن قبل ذلك بقرون هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ والبحران: بحر عذب وبحر، مالح لأن الله تعالى قال في وصف المائين، ماء البحر وماء الأنهار: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

النحل آية دالة على عظمة الخالق سبحانه

يقول الحق سبحانه ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٩].

النحل مخلوق مهتدٍ بهداية الخالق[1]، لصنع غذاء عظيم وصيدلية مليئة بالأدوية الغذائية والوقائية والعلاجية، إنه العسل.

وقد ذكره النبي ﷺ شفاء ودواء كما جاء في الحديث الصحيح من رواية الشيخين البخاري ومسلم ولما جاءه رجل يشكو له من إسهال شديد حصل لأخٍ له قال النبي ﷺ «اسقه عسلاً» ففعل ثم عاد ليشكو للنبي ﷺ بأن إسهاله قد زادَ، فكرره له مرة أخرى، ثم فعل الرجل ثم عاد ثالثة فذكر له ما ذكر من قبل فقال له النبي ﷺ «اسقه عسلاً، صدق الله وكذب بطن أخيك» ففعل الرجل، مرة ثالثة فتوقف الإسهال، وشُفي الرجل. نعم صدق الله القائل (فيه شفاء للناس).

وأما تفاصيل العلم، علم الأدوية والطب والتجميل والتغذية، فتقول هذه العلوم في كتبها ما يصنع موسوعة ضخمة وكبيرة في العسل، مما يجعلنا نمعن

(١) انظر تفاصيل دقيقة دالة على عظمة الخلق سبحانه في أسرار النحل وإلهام الله له، وتنظيماته وأقسامه وتكاثره. وصناعته للشمع ومواد التحنيط وخلاياه وسكناه وتعاملة مع الرحيق وكيفية صنعه للعسل.. في كتاب سبعون برهاناً علمياً لابن خليفة عليوى، ص٥١، البرهان السبعون، ص ٤١٥ ــ ٤٣٣.

النظر في كل كلمة من آيتي السورة التي حملت اسم النحل المهتدي لصناعة العسل بهدي ربنا سبحانه القائل: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠].

فسبحان الله هدى النحل أن يصنع عسلاً، بينما هدى دودة القز أن تصنع حريراً، وهدى حشرة أخرى أن تصنع مَناً تتغذى عليه مخلوقات أخرى. وهدى مخلوقاتٍ أن تصنع لبناً، يتغذى عليه الإنسان... وهكذا كل ذلك هداية من الله عبر عنها القرآن بأنها وحي بقوله (وأوحى) ويبدو ان الوحي كله فيه خير، فالوحي للنحل أن يصنع العسل الشفاء، والوحي للأنبياء بالرسالات لما فيها من شفاء للبشرية من كل أمراضها العقدية والاجتماعية والتشريعية والأخلاقية، ولما فيه خيرها وسعادتها وعافيتها في دنياها وآخرتها.

والله سبحانه يوحي إلى النحل إلى تُنَوع أماكن سكناها لتصنع العسل من بيئاتها، متدرجاً معها بحسب تلك البيئات، بما يؤثر على مستوى نوعية العسل الذي تضعه من الأعلى إلى الذي هو أدنى إلى الذي هو أقل حسب ما وصل إليه العلم؛ حيث نوّع أماكن السكن لها إما الجبال وإما الشجر وإما العرائش.

وثبت علمياً أن العسل الجبلي هو أعلى أنواع العسل جودة، وأكثرها دقة عالية في مواصفاته العلاجية من أي من أصناف العسل الأخرى، يتلوه العسل المصنع من الخلايا التي تكون مساكن النحل فيها في المناطق الشجرية، يتلوه بدرجة أقل العسل المصنع من النحل الذي يسكن في المعرشات؛ ذلك لأن ما يأكله النحل ويتغذى عليه من الرحيق يختلف في النباتات البرية الجبلية عنه في النوع من الأشجار من حمضيات وغيرها، يختلف عن غيره في النباتات غير الشجرية، وغير البرية في المعرشات.

وبهذا التدرج في النوعية جاء الترتيب لبيوت النحل. وبهذا تعرف عظمة الخالق بما خلق وهدى، وبما وصف ولفت النظر إليه من دلائل عظمته لقوم يتفكرون.

ثم تعال معي في الآية الكريمة التي يأمر الله فيها أمر هداية النحل بأن تأكل من كل الثمرات لتصنع العسل. وفيه هذا المزج أو التركيب لكل ما في رحيق تلك النباتات أو الثمار من الفوائد ومن الخصائص الغذائية والخصائص العلاجية، وأمرها أن تسلك سبل ربها ذُللاً، أي أن تسير في طيرانها باحثة ومحمّلة بالرحيق والمواد التي تجهزها لتصنع العسل، في طرق سهلة مذللة بحيث تبتعد عن المطبات الهوائية والمناطق الموبوءة بيئياً، والوعرة، والمغُبرَّة، والملوثة من أجل الحفاظ على نقاء المواد الخام للتصنيع، وللعمل على راحة النحلة وعدم إجهاده وعدم تعرضها للأمراض لتكون معافاة عند تصنيعها

ولتكون موادها نقية عند تصنيعها.

وقد أثبت العلم أن النحل يطير بهداية عجيبة؛ إذ أن له مسارات في الهواء وقانوناً في الطيران أدق من مسارات الطيران للطائرات الموجهة إلكترونياً لسلامة الطائرات وسلامة ركابها.

كل ذلك مما أدهش الباحثين كيف أن ذلك قد أشار إليه القرآن قبل أربعة عشر قرناً حين ذكر أن الله أوحى للنحل بهذه الأوامر والهدايات كما في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٦٩] فسبحان الخالق وسبحان الهادي.

العسل صيدلية وآية شفاء دالة على عظمة الخالق

إننا نجد في خلق الله سبحانه أدلة على عظمته، ونجد ما في مخلوقاته من حكم وفوائد دالاً على وجوده وعلمه وحكمته. فتعالوا معي إلى هذه الصيدلية التي تحوي مجموعة كبيرة من الأدوية ولكنها على كثرتها وكثرة استعمالاتها وكثرة الأمراض التي جعلها شفاء لها، تجتمع في علاج واحد، ليس فيه مرارة الدواء ولا صعوبة التحضير، ولا بشرية التصنيع إلا في طرق الاستعمال، وليس صعباً في تهجئته ولا في مصطلحه فهو في كلمة واحدة من ثلاثة حر،وف أولها يسيرة سلسة النطق يبدأ من الشعور بالعلة والمرض فبدايته حرف العين لمن يعاني، ووسطه حرف سين ليدل على سهولته وسهولة استعماله وسهولة الشفاء منه بإذن الله، وآخره حرف لام دال على الراحة والهدوء، مشعر بالحمد لله على السلامة ويبدأ باللام في استشعار عظمة توحيد الخالق حين يقول لا إله إلا الله.

أتدرون معي ما هذا العلاج الواحد اليسير البسيط السهل الطيب، الحلو الذي يجمع صيدلية كبيرة في مجموعة أدويتها واستشفاءاتها إنه عسل ذكره ربنا وصنعه بحكمته من حشرة ذات ثلاث حروف فقط أيضاً إنه نحل بكل ما للفظ النحل من الهبة والمنح والعطاء ولنقرأ قول الخالق البارئ سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨- ٦٩].

ما هذه الآية التي يدعونا الله لنتفكر فيها، وإذا هي مليئة بالآيات والدلائل على عظمته، فهي آية مليئة بالآيات، وهو نوع واحد من الأطعمة أو الشراب مليء بالأدوية والشفاء لكثير من الأمراض.

تعالوا نسمع ما للعسل هذا الذي وصفه خالقنا وخالقه وخالق النحل، وخالق مواده الخام الأولى النباتات ورحيقها، وخالق الأمراض، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾. وتعالوا نعلم ماله من فعالية بإذن ربنا في شفاء كثير من الأمراض، وفوائده في كثير من الاستعمالات لمختلف أعضاء الجسم بحيث لا تجد أعضاء في الجسم داخلها أو خارجها إلا وله فيه خير غذاء، وخير دواء.

وهو وحده من الأدوية التي تجتمع فيه الغذاء والدواء، كما تجتمع فيه الوقاية والعلاج، وهو الوحيد الذي لم يسجل له التأثيرات الجانبية المضرة للجسم، فكيف وقد سماه الله شفاء فقال: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ فهو نكرة، والناس معرفة، فهو شفاء يستغرق كل أفراد الناس كما يستغرق كل أمراض الناس.

ولعل هذا السر فيما نطق رسولنا ﷺ بحقه من وحي ربه في سنته المكمل لوحي ربه قرآناً إذ قال فيما صح عنه عند البخاري عن ابن عباس: " الشفاء في ثلاثة شرطة محجم، أو شربة عسل أو كيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكي".

وعن ابن ماجة فيما يرويه ابن مسعود قوله ﷺ: «عليكم بالشفائين العسل والقرآن».

أما ما أثبتت تجارب علماء الأدوية والطب من فوائد واستطبابات بالعسل فهو أكثر من يستوعبه كتاب، بل مئات الكتب؛ ففي ذلك مجلدات من الكتب في مختلف دوائر الأبحاث الغذائية والصيدلانية والطبية حتى عثرت على الكتاب لرئيسة جمعية أبحاث النحل البريطانية إيفا كرين Iva Crane في ستمائة صفحة تقريباً عنوان Honey العسل تقول في آخره: وهنا ونظراً لأن العسل يفيد على نطاق واسع وغير مؤذ، فإنه يحق لنا بكل تأكيد أن ننهي هذا الفصل بالتعبير من السورة السادسة عشرة (١٦) من القرآن حينما يتكلم عن العسل أنه (فيه شفاء للناس). [وهذه المعلومة منقولة عن كتاب الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم الذي بدوره نقل المعلومة عن كتاب العسل للدكتور محمد نزار الدقر].



العسل نعمة غذاء ووقاية وشفاء

ومع آيات عظمة الخالق سبحانه مرة ثالثة في وصفه لما هدى الله النحل من اتخاذ البيوت والشجر والمعرشات، والأكل من كل الثمرات والسير في سبل مذللة لتصنع العسل، ويصف الله هذا العسل بأنه شراب فيه شفاء للناس.

فما هذه الثروة الغذائية وهذه الطبية الوقائية والعلاجية بحيث لا تجد مثلها في الغذاء ما يجمع بين كونه تغذية ووقاية وعلاجاً؟!.

أما أنه غذاء: فهو من أشهر الأغذية وأحلاها، سكريات غير كيماوية، ولا دخل للإنسان في زراعتها، ولا في تصنيعها ولا في طبخها. إذ فيها سكر لا يؤذي الجسم بل يعطيه الطاقة المتوازنة، وفيه الفيتامينات الضرورية للجسم مثل فيتامين ب٢، ب٦، وحمض الفوليك، وفيتامين ك، وكلها لها دور أساسي في التمثيل الغذائي، وصنع الدم وإيجاد النشاط العام للجسم. ويحتوي على سعرات حرارية عالية لازمة للطاقة وخصوصاً في البلاد الباردة. وفي العسل فوائد غذائية يعجز الإنسان عن وصفها لكثرتها وأهميتها.

أما أنه وقائي: ويقولون درهم وقاية خير من قنطار علاج، فقد أثبتت الدراسات العلمية ونتائج التجارب الطبية مثلاً أن إعطاء العسل لمرضى البول السكري له تأثير جيد على سير المرض مع الحمية اللازمة لمرضى السكري.

كما ثبت أن العسل للأطفال يقي أسنانهم من التعرض للتسوس والنخر، ويحميها من تكاثر الجراثيم، ويعمل على تثبيت الكلس في العظام والأسنان، وله أثره في نمو العظام نمواً طبيعياً، في حين أن السكر العادي والحلويات تساعد على تسوس الأسنان وتساعد على نمو الجراثيم والبكتيريا الضارة. كما أنه يساعد على بناء الجهاز المناعي للإنسان المقاوم للأمراض. فعند الأطفال يجنبهم الإصابة بالأمراض الجرثومية والتعفنات المعوية الناتجة عن الدوزنتاريا والإسهال المتكرر، كما يزيد من النمو المتوازن للأطفال وتصنيع كريات الدم الحمراء، ويقيهم من أمراض سوء التغذية والإمساك وانتفاخات البطن بالغازات المؤلمة واضطرابات القولون، كما يساعد على ظهور الأسنان ونمو الكلس في العظام.

أما في الكبار فهو يزيد من مناعتهم ضد أمراض السرطان، ومن الشيخوخة المبكرة، ومن الشعور بالوهن والضعف والخرف وانحطاط الجسم والوهن العصبي وهو مريح نفسي يعد بمثابة المهدئات المريحة لنفسية الإنسان.

كما أنه يقي الأجسام من أعراض التسمم الناشئة عن التعرض للأشعة الضارة. ومن النزيف لما فيه من فيتامين ك.

أما في استعمالاته العلاجية فهي أكثر من أن تُحصى فمنها:

ما توصل إليه علماء الدواء والتصنيع محاليل عسلية خاصة لحفظ العظام وقرنية العين لاستعمالها في جراحات التطعيم والترميم.

كما توصلوا إلى أن العسل علاج للثعلبة والشيب، وأنه يجدد خلايا الجلد عند

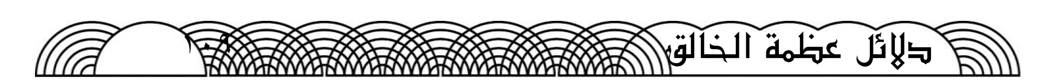
الشيخوخة. وهو مستحضر طبي واقٍ في طب التجميل الوقائي والعلاجي للجلد وأمراضه. كما هو معالج ممتاز للجروح والقروح والتعفنات الجلدية لما فيه من المضادات الحيوية، ومن خاصية العزل للمنطقة المصابة عن الهواء الخارجي المليء بالميكروبات والجراثيم التي تُبطئ من التئام الجروح وتساعد على تلوثها.

وهناك مراهم مصنوعة من العسل، وحقن عسلية تستعمل بعد العمليات الجراحية لمساعدة الجروح على الالتئام ولتقيها الجراثيم والالتهابات.

كما صنعوا منه مخدراً آمناً للتخدير عند العمليات الجراحية لتجنب ما يسببه البنج المخدر من اضطرابات قلبية ودورانية وخلل في الدورة الدموية، وخصوصاً لمن يعانون من أمراض القلب والضغط والحساسية والربو. وهو أيضاً وبخاصة الجبلي منه معالج ناجح وسريع لأمراض الحساسية والربو على وجه الخصوص، كما ثبتت فعاليته العلاجية في التهاب المجاري البولية والأمراض التناسلية والسعال وأمراض الأنف والحنجرة والعين والجهاز الهضمي وأمراض الدم والقلب والكلى.

نعم إنه غذاء ووقاية وعلاج وعناية كاملة في كلام ربنا سبحانه:﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ خلقه الله وسماها عسلاً ووصفه شفاء. فسبحان من خلق وهدى، وأطعم وسقى، ووقى وشافى وعافى. سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

والحمد لله رب العالمين .



الفهرس